شال من القطيفة الصفراء

253

أصوات أدبية

عبد الوهاب الأسوانى

أصوات أدبية

سلسلة نصف شهرية

تعنى بنشر الإبداعات المصرية

الهيئة العامة لقصور الثقافة

- شال من القطيفة الصفراء - 253 - قصص - عبد الوهاب الأسوانى
- الطبعة الأولى - منتصف يناير 1999

المراسلات

باسم مدير التحرير على العنوان التالى :
١٦ أ ش أمين سامى - القصر العينى
القاهرة - رقم بريدى : ١١٥٦١

عوْدة المهاجر..

هاقد جئتكم بعد احتشاد لا تملكون حياله غير الانحناء، أفعل بكم ما فعله الحاكم التركى الذى تقولون إنه أوقف أجدادكم فى حمارَّة القيظ حتى أغمى على شيوخهم، أجبركم على الركوع كما ركع أسلافكم أمام فرعون، أكنسكم أمامى كأنكم طابور من النّمل باغته الفيضان.

– يقال إنك عُدت من البلاد البعيدة تحمل ثلاثة أجولة محشوّة بالدولارات.

– تسعة وأنت الصادق

– تسعة ؟

– وهل تظن أضيّع من عمرى ربع قرن لم أفرق فيه بين الحلال والحرام من أجل ثلاثة أجولة ؟!

سأشترى نجعكم بأكمله يا أسوأ خلْق الله، وكل نظرة شزْراء برقت لإذلالى، سأردّ عليها بألف إصبع.

– يا عمّي الحاج «زغابى» أنت تعلم أن هذا الفدّان هو الذى أعيش عليه أنا وأمى ولا شئ غيره.

– مادمت رهنته لنا، فيجب تسليمه

– أنا أدفع لك إيجاره، واتفاقى معك كان على هذا الشرط..

– كان.

– وما الذى جرى الآن ؟

– أريد كلمة واحدة، هل ستسلّمه أم لا ؟

قال ذلك مهتاجا وقد أربدّت ملامح وجهه ومدّ سبابته تجاهك حتى كاد طرفها يدخل فى عينك لولا أن تراجعت برأسك إلى الخلف :

– لكن يا عمى ...

– نعم، أم لا ؟

لو قلت لا لمنعوا الماء الذى يمّر بأرضهم – التى كانت أرض أبيك وجدّك – وتعذّر الزّرْع.

– يا حضرة العمدة، أنت الذى تستطيع إقناع الحاج زغابى بمراعاة ظروفى، بارك الله لك فى صحتك وأولادك.

كان مشغولا فى تناول طعام العشاء، وجّه إليك نظرة اكتست بطابع الاستغراب وهو يلعق أصابعه بصوت مسموع :

– أنا أهبط من مقامى لأقنع ابن البرطوش ؟

– وأين أذهب إذا سلّمته الفدان ؟

شرب كوز الماء وأجاب بعد أن تجشّأ :

– أرض الله واسعة .

مسحت العرق عن وجهك، طُفت بكل من يملكون مالا فى البلد :

– اسمع يا بنى، المبالغ المسحوبة على فدانك كبيرة، الوحيد الذى يقدر يدفعها لك هو الشيخ طنطاوى فعليك به. توقّفت المسبحة بين أصابع يُمناه ثم أغمض عينيه ذات الأجفان المنتفخة :

– أنا أقدر أدفع لك المبلغ، لكن عائلتى، كما تعلم، قليلة العدد، لا تستطيع الوقوف بجانبى لو منعوا الماء، ومن غير المعقول أرمى فلوسى فى بحر النيل.

– أنت رجل عاقل، قل لى رأيك فى حّل الموضوع.

عادت حبّات المسبحة إلى طقْطقاتها وهى تتساقط متتابعة :

- سلّم أمرك لله.

هاقد جئتكم بعد أن عملت فى كل شئ وتاجرت حتى برقاب البشر أنفسهم، أتحرّق شوقاً للفتك بمن يتحدّانى..

- لو قتلته لك عندى كا ما يرضيك.

- مائة ألْف ..

- هذا كثير ..

- لم أتغرَّب إلاّ من أجل المال، لى ثارات عند كثيرين لابدّ من أخذها ..

- طيّب، كم تريد الآن ؟

- المبلغ كله ..

- كله ؟

- وبالدولار.

سأشترى بيتك يا حاج زغابى بعد أن أُغريك بعشرة أمثال سعره لكى أجعل منه مربطاً لحمير ضيوفى، أو ربما ربطت فيه كلباً كما فعل المرحوم عبد الباسط بعد أن

كسب قضيّة بيته المُغتصب.

- يا ولدى، أنت تعلم اعزازى لك.

- أعلم يا عم عبد المولى.

- زينب لم تعُد تنفعك.

- ماقصدك ؟

أدار رأسه بليونة وواجهك بنظرة غير مكترثة بوجودك، وخالطت السخرية صوته المعدنى فى برودة ليالى طوبة :

- من أين ستنفق عليها وعلى أطفال قادمين بعد ضياع الفدان ؟

اصطفقتْ أجفانك فى حيرة وأجبت بصوت خافت لم تسمعه أنت نفسك :

- الله هو الرزّاق .

بعينين برّاقتين لا يطرف لهما جفن وابتسامة مرسومة وصوت هادئ وقور جاءتك كلماته كنصلٍ حادٍّ يغوص فى الأحشاء :

- صدقت، الرزّاق، سبحانه، يرزقك ببنت الحلال التى تريح قلبك، ويرزق زينب بابن الحلال الذى كتبه الله لها،

وسأعيد إليك المهر بكامله.

حتى أنت يا عم عبد المولى خذلتنى وأشمَتَّ بى الأعداء، جمعت البلد تتفرّج، ولأول مرة فى تاريخها، على المأذون يسلّمنى ورقة الطلاق قبل أن أدخل بعروسى.

ماتت أمك مقهورة بعد هلال واحد من ضياع زينب والفدان، ووقفت ترقب محراث الحاج زغابى يشقّ الأرض كأنه يخترق قلبك، ودّعت شقيقتك التى بكت بحرقة وبكت معها ابنتها فاطمة، وجاملك زوج أُختك: «ما باليد حيلة يا بن الخال»، لكن هاقد عُدتُ إليكم رافعا زُنابتى المفعمة بالسمّ، ألدغ خصومى حتى الموت، أنت نفسك يا عم عبد المولى سأُملى عليك شروطى فتوافق عليها وإلّا انتزعت منك أرض أولاد المرحوم ياسين التى استرهنتها بتراب الفلوس، لن يكلّفنى ذلك غير مشقّة فتّح هذه الحقيبة السامسونايت وتناوُل إحدى رزماتها، ولو سامحتك – بعد أن يشيب شعر رأسك – فسيكون ذلك من أجل عيون زينب .

***

هل أخطأت وهبطت من القطار فى محطة أخرى ؟..

أين صفّ الأشجار فى الميدان العريض، وأين مقهى المنصوريّة بشجرة الأثْل أمامه والأزيار الكبيرة تحت ظلّها العميق، وما هذه البيوت القبيحة ذات القالب الأحمر، وما كل هذا الزحام ؟

– أيّها طريق معادى «القيزان» لو سمحت ؟

– اليمْنى، بعد مائة متر تجد موقف سيارات الأجرة .

– سيارات أجرة ؟..

لم أكن أتخيل النيل يحمل كل هذه النفايات على سطحه، والمراكب الشراعية تعمل بالموتورات، ثم ما هذا الذى حدث فى الشاطئ الآخر ؟..

أين حقول القمح بسنابلها تتمايل فى خُيلاء، وأين أحواض البرسيم بخضرتها المحبّبة، والنخل الغزير وأشجار المانجو وما هذه المبانى الأسمنتيّة الجهمة، وماذا فى داخل هذه البراميل المصفوفة على حافة الجُرف، وإلى أى شئ ترمز هذه المداخن، تعكّر السماء بسوادها ؟

– من فضلك، أين بيت المرحوم مرعى الحمدون ؟

أشار بيده إلى الأمام دون أن يخرج الأخرى من جيب بنطلونه وقال بلا مبالاة :

– اسأل قُدّام .

مجموعة من البنات يمشين فى الطريق.. من هذه ؟ .. زينب؟ أجل هى نفسها بعينيها العسليتين وقوامها المبروم، لم يتغيّر فيها شئ غير أن خلعت الطّرحة وتركت شعرها ينسدل على كتفيها، طبعا هى تجارى الجوّ العام مادامت كل البنات فعلن هذا :

– زينب .

– زينب من ؟

– ألست زينب بنت عبد المولى ؟

تراجعت والدهشة فى عينيها، ضحكت بقية البنات، تهامسن فيما بينهن ونظراتهن تتجه نحوك، تساءلت أطولهن قامة : من تريد يا عم ؟

– زينب، أنا أعرفها من بين ألف واحدة.

اتسعت العيون كأنها تتهمك بالجنون، تساءلت الطويلة:

– من أى بلد أنت ؟

– من هنا، دعى زينب تكّلمنى، لا أريد أن يتدخل أحد

بينى وبينهـا، أنا جـئت يا زينب، كل شئ سـيـعـود إلى أصله.

ظهر العبوس على وجه زينب الحبيب، قالت الطويلة ضاحكة:

– يا قاعدين يكفيكم شرّ الجايين، من أين جئتنا يا رجل أنت ؟

– أنا من قلب هذا البلد، أنا عـبـدالله ابن مـرعى الحمدون اندفعت إحداهن نحوى وهى تهلل :

– يا ألف مرحبا، أهلا بك يا جدّى.

– جدّك ؟

– أنا بنت فاطمة

– فاطمة من ؟

– ألا تعرف فاطمة بنت أختك ؟.. أنا بنتها، يا ألف مرحبا

فاطمة كبرت وتزوجت وأنجبت فتاة فى مثل عُمر هذه ؟

قالت وهى تمسك بكفى وتهزّ ذراعى بشدّة وصوتها يتهدّج :

– تفضل عندنا، أمى ستسعد بك، جدّتى الله يرحمها

كانت تحدثنا عنك كثيرا، كنا نظن أن مكروها حدث لك أو أنك فى السجن، حمدا لله على سلامتك.

ضاعت شبيهة زينب فجأة فى الزحام الذى وجدتُ نفسى فيه، استقبلتنا فاطمة فى بيتها، عرفتها لأن عينيها تشبهان عينى المرحومة أمها، أطلقت زغرودة وهى تحتضننى وتصرخ: خالى جاء، يا ألف نهار أبيض، إجر يافريال، قولى لخالاتك يحضرن حالا، خالنا جاء .

امتلأ الجو حولى بالزغاريد والأطفال، جاء الكثير من الرجال الذين لم أعرف منهم أحداً إلاّ إذا ذكروا لى اسم أبيه وجدّه، جاءت الكثيرات من النساء والبنات من جميع الأعمار، أخيرا وصل جارنا القديم عبد العظيم أبو سيف الذى عرفته على الفور رغم انحناءة ظهره، بعد أن تعانقنا طويلا قلت له :

– أول شئ أريد أرضى من الحاج زغابى.

جُمد للحظة وهو يتساءل : أرضك ؟

– الفدان الأخير والأرض التى فوقه وإلاّ جعلته يمشى فى الطرقات وهو يكلّم نفسه ..

– أرضك، عدم المؤاخذات، انتزعتها الحكومة.

– انتزعتها ؟

– أقامت عليها محطة الكهرباء.

– ألم يجدوا غير أرضى ؟

– انتزعوا معها أراض أخرى من الحاج زغابى، بالذات من أرضكم القديمة التى اشتراها منكم.

– قُل كلاما غير هذا ؟

– هذا هو ما حدث، والحكومة بحثت عنك لتدفع لك نصيبك فى التعويض.

– وأين الحاج زغابى الآن ؟

– مات.. اقتحم اللصوص بيته وسرقوا فلوس التعويض، لم يتحمل الصدمة، فى البداية أصيب بالشلل، ثم توفى إلى رحمة الله، لكن لماذا الحديث عن هذه المسائل القديمة ؟

تساءل صبى فى حدود الرابعة عشرة : زغابى من؟ لم يجبه أبو سيف. ساد صمت لم يكن يقطعه غير لغط النساء وضحكات البنات اللاتى تجمعن فى الداخل عند فاطمة يهنئنها بسلامة وصولى، ومن الباب المفتوح على مصراعيه رأيت قرص الشمس الأحمر يوارى نصفه وراء

الجبل الغربى، وثمة رجل منهمك فى رفع الماء إلى أرض مرتفعة، شادوفه يعلو ويهبط مع صوت غنائه، وتساءلتُ: وزينب ؟

– زينب من ؟

– بنت عبد المولى.

دهش الشباب حولنا، لكن عبد العظيم أبو سيف ابتسم قائلا : هى هنا ..

– أين ؟

– سلّمت عليك مع النساء الداخلات.، هى، الله يعزّك، الكفيفة التى تقودها حفيدتها الصغيرة، وهى فى الداخل الآن مع بنت أختك.

وكان قرص الشمس قد غطس وراء الجبل الغربى، ومع صوت الشادوف والغناء تصاعدت رائحة بعُد العهد بها، رائحة الأرض العطشى حين يغشاها الماء فتُعطى المرء إحساساً بأنه قريب من أصله.. التراب.

الصدأ

قال عبد العاطى وهو يلهث :

– القحاطْنَة فى الطريق ..

التفّ حوله أهل النَّجْع :

– كم عددهم ؟

– أوّلهم عند بحر النيل وآخرهم على بُعد نصف نهار..

أطلقت عائشة بنت يعقوب زغرودة جاوبتها زغاريد من أركان النَّجْع حين عَمَّ الخبر :

– أولاد عًمنا القَحاطْنَة جاءوا لنجدتنا..

إذن، نحن لسنا قّلة كما ظن «الصقور» الذين أذلّونا بكثرتهم العددية يوم السبت.. رشّوا بذور البرسيم فى أرض الشيخ عبد التواب التى تقع على حدود أرضهم وأطلقوا فيها الماء.. حين حاول صاحبها منعهم، دفعه سُفهاؤهم إلى التّرعة فعاد إلينا بثياب ملطّخة بالطين.

– يا حاج خليفة.. أنت أعقل الناس فى «الصقور»

وأفضلهم.. بأى حق تزرعون أرض الشيخ عبد التواب؟

- هذه أرضنا يا شيخ غلاَّب وطول عمرنا نزرعها..

- كنتم تزرعونها حين كانت مرهونة عندكم، لكن مادام صاحبها دفع لكم فلوسكم، فمن حقِّه يزرع أرضه.

- أمامه المحكمة..

- أنت عارف أن الموضوع إذا تحوّل إلى المحكمة سيأخذ عشرين سنة على الأقل.

- هذا آخر كلام حَدَانا.

***

جلس شيخ نجعنا - غلاّب - على الأرض، أسند ظهره إلى جدار بيت الحاج عبد العزيز، وضع كفّه فوق رأسه، التفّ نجعنا حوله :

- وجدتهم فوق أرض الشيخ عبد التوّاب كالجراد وبقية جموعهم تملأ الفضاء بين الجبل وبحر النيل، فى أيديهم النبابيت وبعضهم يحمل الحراب وعيونهم تلمع..

- يعنى يريدون أن نخرج لقتالهم كى يفضحونا؟

- واضح..

- هل نشكو للحكومة ؟

- مشاكل الأرض لا تحلّها الحكومة..

- ومن يحلها ؟

- مجلس عرب أو القتال..

- لكن «الصقور» قالوا لن نقبل مجالس عرب.

- هل عندكم مقدرة على قتالهم ؟

ساد صمت حزين.. ولم يستطع رجل فى نجعنا أن يواجه نظرة زوجته فى تلك الليلة لولا أن الصراخ انطلق من الناحية البحرية فشغل الناس..

- ماذا حدث ؟

- الشيخ عبد التواب مات..

كاد الزمام يفلت حين تهوّر إدريس السنوسى وجلجل بصوته المشروخ «النار ولا العار» وانضم إليه بعض الصغار، لكن العقلاء سيطروا عليهم، ثم سرت الهمهمات الجماعية :

- ليس أمامنا غير أن نستنجد بأولاد عمنا القحاطنَة.

***

وبرغم أن جسد المرحوم عبد التواب لا يزال طريا فى قبره، فإن الزغاريد لم تكفّ حول عبد العاطى صاحب البشارة..

– ألا تعرف عددهم بالتقريب ؟

– الله هو العليم، لكنهم يسدّون عين الشمس.

– من الذى يقودهم ؟

– صالح الواعر شيخ النجع الشرقى، وعبد السلام الأخضر زعيم العوامر، وسالم الباجس كبير النجع الفوقانى، وعامر الخابور شيخ النجع البحرى، ومحمود الشاذلى زعيم القراقير، وعبد الحفيظ المخلول كبير النجع التحتانى، وحسب الله السكران زعيم البراديس.

– والعمدة ؟

تردّد عبد العاطى قليلا قبل أن يقول :

– صراحة العمدة أراد منع الناس، لكنهم هاجوا، بالذات أهالى النجع التحتانى الذين شتموه وقال له زعيمهم عبد الحفيظ المخلول «إذا كان منصب العمودية سيجعلك تخلع العمامة وتلبس طرحة فلماذا لا تستقيل؟»

فغضب العمدة وطلب من شقيقه «كمال» وأولاده الثلاثة وجميع المشايخ والأعيان أن يحملوا السلاح ويخرجوا مع الناس.

تكاثفت الزغاريد حين ابتسمت تجاعيد شيخ نجعنا غلاّب الذى أمسك بطرف لحيته البيضاء وقال فى ثقة :

– لن نحتاج إلى قتال «الصقور»..

– بل سنقاتلهم..

– لن يتصدى لنا أحد منهم..

– ماذا تعنى ؟

– سنزحف إلى أرض المرحوم عبد التواب، نغرس فيها فسائل النخل، ونقيم العرائش، ونربط فيها البقر والغنم والحمير دون أن يعترضنا أحد..

– وإذا جاءوا ؟

– لن يجيئوا..

– قل كلاما غير هذا..

– حين يسمعون بوصول أولاد عمنا القحاطنة، سيلزمون بيوتهم لأنهم ليسوا أصحاب حق..

- ربما تحرّك صغارهم..

- الكبار سيمنعونهم ..

- أنت متوكّد ياشيخ غلاّب ؟

- متوكد.. فنحن لم نتحرك لأن الرجل منا كان مضطرا لقتال عشرة، هم الآن لن يتحركوا لأن القحاطنة فى مثل عددهم أربع أو خمس مرات، ثم أن الحق حق والباطل باطل.

تنهد إدريس السنوسى وقال بصوته المشروخ :

- الناس سيعيّروننا فى قابل الأيام.. سيقولون أرضكم ضاعت ولم يخلّصها لكم إلا القحاطنة..

- كلا.. القحاطنة يردّون لنا الجميل.. كان أجدادهم فى أسوأ عيشة قبل أن تشقّ الحكومة الترع التى اتسعت بعدها أرضهم وصاروا من أغنى الناس.. كانت تحدث فيهم المجاعات فيلجأون إلينا يقيمون بيننا بالشهر والشهرين والثلاثة.. أنا رأيت هذا بنفسى عندما كنت ولداً فى طول السيف.

- الله أكبر ..

- هيا استعدوا لاستقبالهم.. افرشوا المضْيَفَة والدواوين، واخلُوا بعض البيوت من سكانها واجمعوا فيها الأسِرَّة والبطاطين، واكنسوا الساحات واملأوها بالدِّكك، وانحروا الذبائح وقولوا لنساء النجع تبدأ فى الخبيز، وجهِّزوا علفاً للركائب، سوف نستضيفهم لأربعة أو خمسة أيام على الأقل.

***

اختلطت دقات الطبول بطلقات الرصاص حين وصلت طلائع أولاد عمنا. فى المقدمة أحد عشر فارساً يقودهم «كمال» شقيق العمدة، يبدو كالأمير فى ثوبه «الامبريالى» اللامع السواد وعباءته المنسدلة على كتفيه، عمامته الضخمة، ناصعة البياض، تميل إلى الأمام قليلاً فتُغَطِّى نصف جبهته، يعلق بندقية ذات ماسورتين، على كتفه الأيسر، خلفهم طابور من راكبى الجمال ذات السروج القطيفية الخضراء يحملون الحِراب، على البُعد ظهرت صفوف من حاملى النبابيت بعضهم يركب الحمير وأكثرهم يسيرون على أقدامهم، نرى بداياتهم، فى حين

اختفت نهاياتهم وراء جبال الشهابيين.

رجّت فرقة الغَجر التى استأجرناها الأرض بطبولها، وصعد الصغار هامات النخل يتفرجون على الموكب المهيب يتقدم فى خيلاء، وأحضر أهالى نجعنا حصان عبد الرحمن الصابر لكى يركبه «أيوب أبو نعجة» – أفصح رجال نجعنا – ليلقى أمامهم الخطبة التى قضى الليل فى صياغتها، قال لهم: بعد أن تنحنح وسعَل ونصب الفاعل وجرَّ المفعول، أنتم أعظم ناس ظهروا على وجه الأرض منذ السنة التى حدث فيها طوفان سيدنا نوح، حتى اليوم الذى دخل فيه اليهود القُدس ورشّوا بذور البرسيم فى أرضها، والدليل أنكم جئتم لنجدة أولاد عمكم الذين كان أجدادهم ينجدون أجدادكم فى ذلك الزمن الذى كان فيه الرغيف أغلى من الجنيه الذهب.

ظهر الاستياء على وجه «كمال» الذى رفع كفه مُحْتَجاً فتوقّف أبو نعجة عن الكلام..

ظهر الضيق أيضا على وجه شيخ نجعنا غلاَّب حيث أن فصيحنا «الحمار» لم يُحسن اختيار كلماته فى

الترحيب بالقوم الذين تحملوا المشاق فى سبيل نجدتنا، وهو الذى يعرف أن ثمة «عُقدة» لدى أولاد عمنا كامنة فى أعماق شعورهم، انتظرنا أن يترجّل «كمال» وصحبه من الفرسان ليعانقوا كبار السن والمقام فى نجعنا، لكنه ضيّق عينيه وقال بلهجة مغيظة:

– أنتم مازلتم فى ضلالكم القديم ؟

– انزل يا عمدة.. مرحبا بك وسط ناسك.

– أى نجدة كنتم تنجدونها لأجدادنا وأى رُغفان هذه التى كانت أغلى من الجنيه الذهب ؟

– لاتهتم بكلام «أبو نعجة»..

– المرأة عندنا ترث الآن من أمها بالعشرة والعشرين فدّانا بينما أعظم ما فيكم لا يملك عشرين قيراطا وتعيّروننا بالرُّغفان ؟

– الله يسامحك ياعمدة، لكن انزل وأهلاً بك.

– كلما قلنا يا قديم عليك الرديم، أطلقتم ألسنتكم مثل الحنظل، لماذا لم تقولوا هذا الكلام لمن داس أرضكم ورش فيها البرسم ؟

– عيب يا عمدة ؟

– أى عيب ؟.. ألسنا محقوقين لأننا استجبنا لأمثالكم؟

صاح إدريس السنوسى بصوته المشروخ من خلف الصفوف :

– لا داعى لكثرة الكلام، انزلوا أو فى ستين الف سلامة !

– ننزل عند من ؟ .. ذيل العربان ؟

– نحن ذيل العُربان يا من شبعتم بعد جوع ونسيتم أفضال أسيادكم ؟

– أنتم أسيادنا يا حوض البصل ؟!

– أسيادك وأسياد أجدادك، رضيت أم لم ترض، ملعون أبوك أنت وكل من معك، من أول عمدتكم «المَرَه» حتى آخر كلب فيكم، غوروا !

فرقة الزمّارين الغجريّة لازالت تواصل ضجيجها، لم تتوقف إلا بعد أن أهوى إدريس السنوسى بنبُّوته على الطبلة الرئيسية، وأدار كمال العمدة عنان جواده، دارت فرسانهم معه، تحرك راكبو الجمال وراءه، تردد أصحاب

الحمير والمشاة قليلا، أعينهم عكست حزناً أحسسنا به، لكنهم استداروا فى جلَبة هائلة تصاعد فيها الغبار حتى زحم الفـضـاء، ظللنا ننظر إلى جمـوعـهم المتحـركـة فى صمت حتى حجبتهم جبال الشهابيِّين.

الرحلة

شقّ الظلام الكثيف فى غابة النخل وراء الدليل..

تساءل حين شعر بالإجهاد : أين ؟

- الصبْر ..

ضاق صدره لركود الهواء.. إذا كان هذا حال الغابة فى النهار، فكيف حالها فى الليل :

- أليس لهذا النخل أصحاب ؟

- بينهم قضايا فى المحاكم، هجروه بلا تقليم ولا تلقيح إلى أن توحّش.

اصطدم طرف جريدة بجبينه، وضع كفه على وجهه تحسُّباً للمفاجآت، قال الدليل: احترس توجد ثعابين هنا.

- ثعابين

- لا تنزعج.. حين تحس بنا، ستبتعد عن طريقنا.

- وإذا لم تبتعد ؟

- الخطورة إذا دسناها.. تمهل فى مشيتك.

– وافرض دسناها ؟

– هى لا تخرج من مكامنها إلا حين تشتد الحرارة، الجو طيب الآن.

– لكن ..

– هل تحب العودة ؟

– لا، لكن متى نصل ؟

– قريبا .. احذر.. تحتنا أرض موحلة.

– حذائى ابتل، سأخلعه.

– كلاً.. شمِّر أكمام البنطلون فقط.

– لابد من خلع الحذاء.

– إياك أن تخلعه، توجد عقارب هنا.

– عقارب ؟

– لا تخش منها مادام الحذاء فى قدميك.

– لكن..

– هل تريد العودة ؟

– كلا ..

أحس بخيوط العنكبوت تلتف حول عنقه، أزاحها

بعصبية :

– ما هذه الرائحة ؟

– أظنه حيوان ميت

– أى نوع من الحيوانات ؟

– ربما ثعلب أو ذئب.

– أتوجد ذئاب هنا ؟

– لن تهاجمنا مادمنا لا نتحرَّش بها.

– الذى أعرفه أنها تهاجم إذا كانت جائعة.

– وما الذى أدراك أنها جائعة الآن ؟

– افرض ..

– هل تحب العودة ؟

– لا ..

– دع الأمور لله ..

– ونِعم بالله ..

– لولا أنك عزيز على نفسى، لما عرّضت نفسى للخطر وجئت لأدلك..

– لن أنسى لك هذا ..

تعثَّر فى شئ ما، تساءل: متى نصل ؟

– دقائق ..

استأنف السير إلى أن وجد نفسه فى بقعة يتسلل إليها ضوء الشمس فى حلقات بحجم النقود المعدنية، تلفَّت حوله محاولاً التعرف على المكان، وقع بصره على الجواد فخفق قلبه.. هو نفسه.. حصان الحاج «عبد الرحمن الأشمونى» بلونه البُنِّى، الذى بدا أسودَ الآن، يثنى عنقه وينظر إليهما، وهو مربوط بحبل غليظ، وثمة شكالان من الحبال يصل أحدهما ساقه الخلفية اليسرى بالأمامية اليمنى، ويصل الآخر اليمنى الخلفية باليسرى الأمامية ومُكمَّم بشكيمة ليفيّة خشنة، لعب بأصبعه فى مَعْرَفَته، انتهى أسرك الآن يا حصان الأحبَّة..

انهمك الدليل فى تنفيض ثوبه، نظر «زايد» إلى قميصه، وجده امتلأ ببقع من خيوط العنكبوت، مضى يزيلها، كل شىء يهون فى سبيل «عائشة»، أشار الدليل إلى الجواد .

– مدبولى وأقاربه اختاروا له هذا المكان، الجن الأزرق

لا تستطيع الوصول إليه.

- الحاج الأشمونى كاد يجن لضياعه.

- طبعاً، علاقة المحُبِّ للخيل بحصانه أو فرسه تشبه علاقته بكائن عاقل.

- فعلاً، حينما مات حصانه الأول، كان يتقبَّل فيه العزاء كأنه فرد من أسرته.

- سمعت، لكن لماذا أنت مهتم بالحصان تبحث عنه كالمجنون ؟

- هل اعترف لك ؟

- إذا أردت ..

- منذ رأيت ابنته عائشة وأنا لا أنام الليل.

- تطمع فى الزواج ؟

- نعم ..

- لكن ..

- لكن ماذا ؟

- لا تؤاخذنى، ربما «الأشمونى» لا يرضى.

- المهم فى الأصل.. اسم جدى بثلاثين فدّانا..

– قلت لى مرة إنها ضاعت ..

– مـازالت «التكاليف» باسـمـه.. لو جلست بجـوار محـصِّل الخراج فى بلدنا، لسمـعت اسم جـدى يتـردد عـشـرات المرات.. أنا فى نظر أهل بلدنا، ابن أصل.. ثم أننى قضيت سنتين فى الجامعة، وأنا الآن موظف محترم.

– الوظائف كانت زمان..

تحرك الجواد كأنه يتعجَّل فك قيوده، أجاب زايد:

– أزرعُ نصف فدان، أحـصل منه على إيراد لا بأس به، وحين أصل إليه ومعى حصانه، سيجنُّ من الفرح، هو الآن فى حالة لو قالوا له بِع أحد أولادك مقابل استرداد الحصان، لوافق.

– على كل حـال أنت أدرى به منى، أعطنى مـا اتفـقنا عليه.

– سأعطيك نصف المبلغ، وأول الشهر أعطيك الباقى.

توقف الآخر عن تنفيض ثيابه :

– كلا، تعطينى حقى بالمليم.

– لا ترفع صوتك هكذا..

– حقى على داير القرش، أنا عرضت نفسى للقتل من مدبولى ورجاله...

–خُذ الساعة

– لا تساوى بصلة..

– اشتريتها بسبعين والفاتورة موجودة.

تردد الدليل قليلاً قبل أن يقول :

– وتكتب لى إيصال أمانة بالباقى .

– فوق الساعة ؟

– سأعيدها إليك بعد أن تعطينى بقية فلوسى.

بحث فى جيوبه حتى عثر على رسالة من أخيه، اقترب من بقعة ضوء، فصل الجزء الفارغ منها وقال :

– إيصال فقط، لا داعى لحكاية الأمانة.

– معنى هذا أنك لا تنوى السداد ؟

– أنوى والله.

– ماذا يخفيك منى إذا كنت ستسدد ؟

جرى قلمه على الورقة وهو يطحن أسنانه، أشار الدليل إلى الجواد :

– حلال عليك البنت الزِّينة، ما اسمها قلت ؟

– عائشة ..

فك الشكيمة من فم الجواد وألجمه، وضع السرج فوق ظهره، فك قيوده، تذكر أيامه الخوالى حين كان يدخل مِرماح الخيل بجواد جارهم الشيخ عبد الودود، قفز فوق السرج برشاقة، أحس بأنه ملك الدنيا، أردف الدليل خلفه، أنزله خارج غابة النخل، ساق الجواد، ضربت الريح وجهه فانعشته، تُرى.. ماذا ستقول عائشة حين تعرف ؟

***

– زايد من ؟.. أنا لا أذكره..

– كيف يا عائشة ؟.. رأيناه معاً.

– أين ؟

– هو الشاب الذى دفع لنا أجرة «اللنش» حين ذهبنا لحضور عرس «بدرية» وساعدنا فى النزول إلى البر.

– آه.. النحيف الذى كان يلبس البدلة الكحلى ؟

– بالضبط.. الآن فهمت.. واضح أن إعجابه بك قديم.

– بصراحة هو أنقذ أبى.. كاد يموت قهراً حين ضاع الحصان.

– ما رأيك فيه ؟

– من أى ناحية ؟

– إذا تقدم لك.. يعنى

– لا أعرف.

– رفضت عبدالعال، وسليمان، وأحمد.. ماذا عنه ؟

– هؤلاء لم يعجبونى..

– وهو ؟

– قلت لك لا أعرف.

– هذا الردّ من علامات الرضا.

***

طريق النيل أكثر أماناً رغم طوله.. الجواد يتبختر فى مشيته، استرداده لحريته أعادت له الثقة فى نفسه، النسمة لطيفة والجرف العالى يعطى الطمأنينة بحجبك عن البلد، ستكون عُرضة لانتقام «مدبولى» ورجاله، يقال إنه وراء قتل «عبد العاطى» يرحمه الله فعليك بشراء مسدس،

كله يهون فى سبيل عائشة..

قبالة المَوردَة الصغرى صعد الجرف.. حقول البرسيم تترامى إلى ما لا نهاية، العصافير تتقافز فرِحَة على هامات النخل، أشجار المانجو والسيسبان والحناء تثير البهجة، ثمَّة هدهد يغنى، الأيام القادمة تحمل فى طياتها السعادة ..

ظهر بيت «عبد الرحمن الأشمونى».. يقوم وحده وسط الحقول ويسمِّيه صاحبه «القصر»..

توقف شاب، يبدو أنه ممن يعملون عند الأشمونى، عن العمل، رفع قامته وتساءل لاهثاً :

– حصان الحاج ؟.. من أين جئت به ؟

– من فم الأسد!

ألقى بفأسه وطار فى اتجاه «القصر» وهو يلملم طرف جلبابه.. سوف يحصل على مبلغ كبير نظير «البشارة»، كيف يكون وقع الخبر على عائشة؟

ظهرت البهجة فى حركات الجواد وهو يصعد المرتفع.. دار حول نفسه مرتين ثم قطع الجسر الذى يصل ما بين

ضفَّتى الترعة، هبط فى اتجاه البيت.

يتلفت «زايد» حوله فاغراً فاه.. ملامحه أعطت انطباعاً بأنه أبلَه:

– أنا .. أنا .. أنا..

تحسس الحاج الجواد والهواء يتلاعب بقميصه الأبيض، قال مُتهكِّماً:

– لست أنا الذى يخضع..

عاد الرجل القصير يحمل لفة من حبال التِّيل، لكن عبد الفتاح التاجر أمسك بها، قال معترضاً:

– اتركوه يا حاج ..

– هل تعرفه ؟

– هذا ابن المرحوم «درويش أبو صالح»..

تساءل الأشمونى وهو يدور حول الجواد ويتفحصه :

– درويش أبو صالح من ؟

– من النجع التحتانى..

– لم أسمع فى النجع التحتانى عن واحد بهذا الاسم.

– درويش أبو صالح البغل..

– يعنى هذا من عائلة البغل ؟

– نعم ..

رمقة وهو يقول :

– أهلك يمشون جنب الحيط، ما الذى رماك فى طريق الحرام ؟

ما زال «زايد» يفغر فاه، أجاب عنه عبد الفتاح التاجر:

– أنا أصدق أنه عثر عليه وجاء به.

– عجزه عن الكلام يدل على أنه شريك ..

ابتسم التاجر فكثرت التجاعيد حول عينيه :

– اتركه يذهب لحاله، وحصانك وصلك.

– لو تركته من غير عقاب، شجّعت اللصوص على معاودة السرقة..

واستطرد بعد أن تمخَّط ومسح أصبعيه فى جدار البيت الأسمنتى :

– لكن لو اعترف، أتركُه لوجه الله.

الترجُّل عن صهوة الريح..

انطلقت زغرودة فَتَحَت الطريق أمام زغاريد كثيفة تصاعدَت فتناغمت مع وشيش النَّخْل ..

– ما الحكاية ؟

– أبو زيد الهلالى وصل..

تحركت الجماهير فى اتجاه الغرب، سالتْ بها الطرقات لا تُرى غير العمائم والطواقى وشيلان القطيفة كأنها ذؤابات الموج، هبطتْ إلى النيل، ملأت الشاطئ ذى الرمال البيضاء، وانتظرتْ.

فى منتصف النهْر مركب شراعى يقترب، ظهر فيه أبو زيد الهلالى يقف بجوار الصّارى، لوّح للجماهير بيديه فتوالت الهتافات باسمه.

– انظروا، يكاد يكون فى طول الصّارى ..

– بسم الله، ما شاء الله، مثل الجبل..

– اسمه الحقيقى أبو زيد عبد الحفيظ، لكن بسبب

شجاعته، غلب عليه لقب الهلالى..

- مادام وصل، لن يظلمنا أحد بعد اليوم..

- يظلمنا ؟.. قُل ستكون لنا السيادة على كل البلاد المجاورة.. هبطت من الجُرُف جماهير جديدة يتقدّمها شيخ البلد يمتطى صَهْوة فرسه الحمراء (العايْقَة) بجواره نجل العمدة على فرسه السوداء (العرايشيّة) حولهما خمسة من أبناء الأعيان يركبون خيولهم..

وقف أبو زيد على حافة المركب، شاربه الكثّ يملأ نصف وجهه، عليه قميص أبيض فوقه صدريّة من الجوخ الأزرق، على رأسه عمامة مملوكية، فى قدمه حذاء أسود له رقبة طويلة تصل إلى منتصف الساق، تزاحمت الجماهير تسلم عليه، لكن عددا من الأعيان، شمروا عن سيقان سراويلهم، خاضوا فى الماء الضّحل قرب الشاطئ ليجعلوا من أنفسهم حاجزاً بين الجماهير وبينه..

تقدّم نجل كبير المزارعين بحصانه الرمادى (الريح)- الذى هزم كل الجياد فى مِرماح الخيل -وخاض به الأمتار القليلة من الماء، قرْبة من المركب، هبط من فوقه

بجوار الدفّة محتفظاً بطرف اللجام فى يده.. سار أبو زيد قليلا فوق حافة المركب ثم جلس على السَّرج وأمسك بطرف اللجام، خاض به (الريح) المسافة القليلة من الماء، وصل إلى اليابسة، دقت الدفوف، زغردت النساء، أطلق ابن عميد التجار عشر رصاصات فى الهواء، صهل (الريح) حين وصل إلى حافة الجُرف العليا.

– واضح أن (أبو زيد) فارس حقيقى..

– صدَقت.. «الرِّيح» لا يصهل إلاَّ إذا أحسّ بأن صاحبه خَيَّال..

اقترب الموكب من أول النجوع، عبق الجو برائحة النعناع، حملها الهواء من حقل المأذون، صاح شيخ البلد من فوق صهوة فرسه (العايقة):

– اجعلوا من راكبى الخيل حلقة حول حصان أبو زيد كى لا تضايقه الجماهير..

قال نجل العمدة :

– سر أنت أمامه بفرسك يا حضرة الشيخ، وسندور نحن بخيلنا حوله ..

شكّل الفرسان من أنفسهم دائرة منعت اندفاعة الجماهير، شق الموكب أول النجوع وأبو زيد وسط الحلقة يتقدمها شيخ البلد، يرفع أبو زيد يده ملوِّحا للنساء على أسطح البيوت، يرسل ابتساماته للصغار فوق هامات النخل..

– ذات مرة انزلقت عربة القطار فى البرّ الشرقى، استنجدت الحكومة بأبو زيد، أعادها إلى القضبان بمفرده.

– يقال إنهم نشروا صورته فى الصحف بعدها.

– شيخ البلد قال رأيت الصورة بنفسى.

أطلق ابن عميد التجار عشر رصاصات أخرى، ودار أفضل شابين فى لعبة التحطيب، بشمروخيهما حول بعضهما بطريقة راقصة وهما يتقدمان الموكب، وذبح كبير تجار الغلال خروفا فى منتصف الطريق، تحية لأبو زيد، ثم سحبه ليمّر الموكب بعد أن ترك شريطا من الدماء على التراب، وتوقفت فرس شيخ البلد (العايقة) فجأة فتوقف الموكب، لم تتحرك إلا بعد أن أوجعها صاحبها بسوطه.

– حين سمع الأمريكان بقوة أبو زيد، أحضروا أقوى رجل فى بلادهم لمنازلته، أقاموا لهما حفل تعارف، وحين تصافحا، تهشمت كف الأمريكانى فى يده، حملوه إلى المستشفى بين الحياة والموت..

ذبح كبير تجار المواشى عجلاً تحت أقدام الموكب لحظة مروره أمام داره المطليّة بالجير الأبيض والمرسوم عليها قافلة من الجمال وسفينة ذات مدخنة عالية، ووقف شباب النجع فوق سياج المضيفة يطلقون بنادقهم فى الهواء..

– أبو زيد أصلاً من بلدنا، لكن جدّه كان هاجر إلى «الرَّمادى» ..

– ما الذى جعله يعود الينا ؟

– سمع بأن (البواجس) الظّلمة منعونا من حصاد قمحنا، فجاء لتخليص حقنا.

– فليمنعوا أبو زيد الآن إن كانوا رجالا..

صعد كبير تجار التّمر فوق سطح بيته الذى يعلوه هوائى تليفزيون، وضع بضعة أجولة من البلح

«السكُّوتى»، غالى الثمن، على حافة السقف بعد أن فتح فوهاتها، تزاحم الصغار يلتقطون التمر المتساقط فى صخب ضاحك، ملأ - كبير تجار التمر - كفّيه بالبلح ورشّها فوق رأس أبو زيد الذى رفع وجهه وابتسم له واضعا كفه فوق عمامته..

- ماذا سيفعل لكم أبو زيد ؟

- يشجعنا على تخويف البواجس فنحصد قمحنا..

- لكنهم لا يزيدون عن رُبْعكم..

- اخرس يا ولد ..

وصل سكان آخر النجوع برجالهم ونسائهم يتقدمهم جمل أحمر وضعوا على جانبى سنامه طبلتين، خلفهما ركب رجل يدق عليهما بمهارة، ومنشدهم المشهور يهزج بالشعر، والجموع تردد وراءه مقطعاً لا يتغيّر:

أبو زيد علينا هلاّ..

يا بواجس زمانكم ولّى..

جاءت كلبة ناظر المدرسة بلونها الأغبر من داخل البيت، نبحت لمرة واحدة، ثم صمتت ومضت ترقب الزحام

فى دهشة وهى ترهف أذنيها، ومالبثت أن تراجعت ورقدت فوق العتبة، واضعة رأسها على ذراعيها المبسوطتين، تتابع الموكب بعينيها الصغيرتين بلا مبالاة..

ذبح كبير تجار الموالح خروفا أمام بيته الذى يعلو بابه تمساح محنّط، ووقف يبتسم للموكب والسكين فى يده تقطر منها الدماء، وأطلق ابن عميد التجار عشر رصاصات جديدة، ومن الاتجاه المضاد، ظهر تلاميذ المدارس يسيرون فى صفين بديعين يتقدمهم حامل العلم، لكن الخيل وأمواج البشر بعثرت صفوفهم فذابوا فى الزحام، لم يبق إلاّ العلم يختفى ثم يظهر ليختفى، مثل شراع موشك على الغرق، يظهر مع هبوط الأمواج، ويغوص حين ترتفع..

– لكن لماذا لم يمنع البواجس العمدة والمشايخ من حصاد قمحهم ؟

– قلت لك اخرس..

اقترب الموكب من الجسر – الذى يصل بين ضفتى الترعة – بصخوره ذات النتوءات الحادّة، حدث تزاحم

عند المدخل، لكن الفرسان نظّموا أنفسهم فساروا على هيئة قطار يتقدمهم شيخ البلد وخلفه أبو زيد ثم ابن العمدة وبقية الفرسان.

بدأت طلائع الموكب فى ارتقاء الجسر، لوّح أبو زيد بيده لبنات عين أعيان البلد الواقفات فى شرفة بيتهن الملاصق للترعة، يرسلن زغاريد مثل أسراب الحمام.

فى منتصف الجسر، توقفت (العايقة) وأبت أن تتحرك، اندفع «الريح» فى اتجاهها وهو يصهل، ثم وقف على الخلفيتين ووضع ساقيه الأماميتين على الحاجز الخلفى لسرجها، اندفع شيخ البلد إلى الأمام وتعلق برقبة الفرس، تطوّح أبو زيد ومال إلى الوراء انفلت اللجام من يده، اندفع جسده نحو مؤخرة «الريح» لكن قدمه اليمنى تعلقت بالرِّكاب، انحرف جسده إلى اليمين نحو الصخور حدث هرَجٌ حين تزاحم الناس حوله، حاولوا تخليص قدمه، قطع أحدهم سير الرِّكاب بمنجل يحمله، أرقدوا أبو زيد تحت سياج الجسر، اقترب شيخ البلد وترّجل الفرسان، أحاطوا به لإبعاد المتزاحمين، وكانت عينا أبو

زيد جاحظتين، تجمدت فيهما نظرة مذعورة، لسانه يتدلى على جانب فكِّه وقد أطبق عليه بأسنانه فاحتقن طرفه..

وضع شيخ البلد كفَّه فوق صدر أبو زيد، ثم أغلق عينيه وقال بصوت مخنوق :

- الدوام لله ..

ساد صمت كالموت والناس يحدق بعضهم فى وجوه بعض، ثم علا الصراخ دفعة واحدة، فى حين تقاطر الفرسان منسحبين، تنسكب بقايا الشمس الغاربة على أكفال خيولهم التى كانت تتخايل بهم فى غير اكتراث.

شال .. من القطيفة الصفراء..

الشفق الأحمر يملأ الأفق الغربى، فردت الشراع كله لكى يتصيد أى نسمة مارة، الهواء شبه ساكن مما جعل مهمتنا صعبة ونحن نصعد ضد التيار فى طريقنا إلى أسوان، بعد أن أفرغنا شحنة من الصخور الجرانيتية فى ميناء روض الفرج بالقاهرة، نقترب من شواطئ القرى بقدر الإمكان، نلتقط المسافرين لزيارة أقاربهم فى القرى التى يصعب وصول الأتوبيسات إليها، رزقنى الله هذا النهار بما يقرب من ثلاثين شخصاً، هبطوا إلى شواطئ القرى التى يقصدونها، لم يبق معى الآن غير شابين فى الثلاثينات وامرأة فى الاربعين، وفتاة تناهز العشرين، أعتقد أنهم سيهبطون قبل أن يحل الظلام.

الفتاة تشبه ابنتى الصغرى حليمة لكنها أطول قليلا.. عليها رداء أحمر وفوق رأسها شال من القطيفة الصفراء، تكسو وجهها غلالة من الحزن الشفاف.. أعتقد أن غلالة

الحزن تكسو وجوههم جميعاً.. المرأة تتنهد بين الفينة والأخرى والشابان يبدو عليهما الوجوم، أظن أنهم فى طريقهم لتأدية واجب العزاء فى قريب أو ربما سوف يزورون مريضا عزيزاً.

لا أحب ترك الدفّة لمساعدى (مهدى) لكننى الآن أحتاج إلى شئ من الراحة بعد أن ظللت مستيقظا أكثر الليل وطول النهار. مساعدى شاب مفتول العضل، يميل إلى العنف، لكنه مخلص ثم أن أمثاله نادرون الآن بعد أن سافر الشباب إلى البلاد البعيدة.

أشرت إليه أن يأتى من مقدمة المركب، اقترب بعد أن خلع ثوبه الأسود وبقى بالقميص الأبيض والسروال، ولست أدرى لماذا يشمّر أكمام قميصه دون دا ع.

اقترب منى وقال هامسا: يا ريِّس.. هؤلاء الناس معهم موضوع ويريدون مساعدتنا.

– أى موضوع ؟

– هذه البنت شقيقتهم.. عابَت وهم يستأذنون منا فى (للمة) الموضوع.

هل أنا أحلم أم أننى مرهق وأتوهم ذلك؟

- أنت مجنون يا مهدى؟.. روح خلقها الله، نوافق على قتلها؟

- الواجب نساعدهم يا ريس فى غسل عارهم.

- أنت تعرفهم ؟

- لا ..

- عرفت من أى بلد ؟

- لم يقولوا، ولا يصح أن أسألهم .. الأخ الأكبر أخبرنى بالموضوع وقال لى أنا فى عرضك، قلت له سنساعدكم بكل قلوبنا..

- هل المرأة أمهم ؟

- عمتهم ..

الأخ الأكبر ينظر إلينا وهو مستند بظهره إلى الصارى، لما وقعت عينى على عينه، انشغل فى حبْك الشملة حول عنقه وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى، الأخ الأصغر والمرأة مطرقان لكننى أحس بأنهما يشعران بما يدور بينى وبين مهدى..

الفتاة غافلة تتابع رجلا على الشاطئ ينهمك فى حلب بقرته، على وجهها مسحة من البراءة، أرى مثلها كثيرا على وجه ابنتى الصغرى حليمة يحفظها الله هى وأمثالها من بنات المسلمين.

– موافق يا ريس ؟

– لا ..

– لماذا ؟

– لا أطيق رؤية قتل الروح..

– ما دامت البنت عابت فيجب أن نعمل فى أهلها معروفاً..

ثم أننا سوف نستنفع.. الأخ الأكبر وعد بدفع مائة جنية لك وخمسين لى.

– حدّ الله بينى وبين المال الحرام.

– أنت خائف من الحكومة ؟

– من الله ومن الحكومة.

– الله لا يحاسبنا على أمثالها، ومن ناحية الحكومة كن مطمئنا أنا أوصيت أخويها بأن يخلعا جلاليبهما

وقمصانهما قبل إلقائها فى النيل كيلا تتشبث بملابسهما.

- ستصرخ ويسمعها الناس على البر.

- سنعطيها ضربة فوق رأسها، ثم أننا سنكون فى منتصف النهر، وأنا واثق إنها ستغوص فى الحال

نظرت إلى الفتاة الغافلة، رأيتها تتابع جبل «الزّاوى» الذى كان يتباعد عنا بصخوره الصفراء المتجهمة، وتذكرت ابنتى حليمة.

- ربنا يحمينا ويحمى ولايانا.

- يعنى موافق يا ريس؟

- لا.. قل لهم يستعينوا بغيرنا.

- يا ريس الناس فى ورطة والواجب نقف معهم.

- أنت طمعان فى الفلوس ؟

- الله يسامحك يا ريس.

- ألم تقل وعدوك بخمسين ؟

أنا قلت له سأساعدكم كما يقضى الواجب، لكنه قال لابد ادفع.

- لا تكلمنى فى هذا الموضوع.

– يا ريس اسمعنى.. أنا مثلاً كنت..

– امنع الكلام.

لاذ مهدى بالصمت، انشغل فى حكّ ذقنه التى لم يحلقها منذ بضعة أيام، أشار إلى الدفة وقال : اتركها لى واسترح قليلا.

– لن أنام إلا بعد توصيلهم.

ذهب مهدى وجلس معهم أشعلت سيجارة، اقتربنا من حقول خضراء واسعة، يبدو إنها من تلك التى كان يملكها أحد الباشوات، الترعة الكبيرة بجسرها العالى تشبه القصة التى رواها لى المرحوم جدِّى فى السنة التى مات فيها، كانت الحكومة تعتقل الناس فى بلدنا، تضع فى أيديهم الأغلال وتشحنهم لحفر ترعة الباشا، اشتد على جدى ومن معه القيظ بعد أن تعبوا من الحفر، حين طلبوا الماء جاء العساكر بالقلل الباردة، وضعوها أمامهم على بعد مائة ذراع، قالوا إذا حفرتم حتى تصلوا إليها، اشربوا.

***

فتحت عينى لأجدنى أرتعد من البرد، النجوم من فوقى توحى بأننا بعد العشاء بكثير، مهدى يمسك بالدفة، وقد لف رأسه بثوب قديم والمركب خالٍ من الناس، أعتقد أن ثمة حلما ضاعت منى تفاصيله، ما هو ؟ .. كأنما فى المركب شابان وامرأة تلتف بعباءة سوداء هل كان معهم أحد ؟.. أظنها فتاة على رأسها شال من القطيفة الصفراء، تشبه ابنتى حليمة، اعتقد أن الارهاق غلبنى فاستغرقت فى النوم دون أن أدرى، هل كان حلما ؟

– أين الناس الذين كانوا معنا يا مهدى ؟

– أى ناس ؟

– البنت وعمتها وشقيقاها ؟

لا أذكر يا ريس.. ناس كثيرون ركبوا ونزلوا. قال هذا وهو يلهث وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى.

ارتحال الظل

أفزعنى احتكاك عجلات السيارة بأرضية الشارع..
سائقها أطل برأسه من نافذتها وهتف باسمى :
-حمدى!

وقع بصرى على وجه (رزق) الذى كنا نطلق عليه فى القرية رزق خفيف اليد، لم يتغير فيه شئ غير انتفاخ عينيه ومازال الجرح الغائر فى جبهته كما هو ..

تعجبت من ركوب خفيف اليد لسيارة مرسيدس.. كان يسطو على (سندوتشات) الزملاء فى حوش مدرسة البندر، هل هى مسروقة ؟

مال إلى جانبه الأيمن، فتح بابها وقال مبتهجا : اركب

والسيارة تتحرك بنا، تذكرت ما سمعته فى زيارتى الأخيرة للبلد.. قال أحد الظرفاء إن درجة ثرائه وصلت إلى مستوى إشعال السيجارة لراقصة مشهورة بورقة مالية حمراء.

– منذ متى وأنت فى القاهرة يا حمدى ؟

– ثلاث سنوات تقريبا.

– ولا تسأل عن صاحبك رزق ؟

– تقصير منى، لكنك تعرف المشاغل وصعوبة المواصلات.

تنهد وقال بعد لحظة صمت:

– طمئنِّى عن أحوالك.

فى مأزق لو أردت الحق، لا سيطرة على الأسعار، لم يبق فى جيبى أكثر من نفقة ثلاثة أيام ولا زال على أول الشهر أسبوع كامل.

– أحوالى جيدة والحمد لله.

– منذ أيام تذكرتك فى اجتماع لى مع الموظفين الذين يعملون عندى، حدثتهم عن طريقتك الرائعة فى الرسم، وعن مغامراتنا أيام الدراسة.

مغامرات؟.. لعل أشهرها محاولتك الفاشلة فى نشل ساعة السائحة الأمريكية قرب المعبد الفرعونى.

– من ينسى الأيام الجميلة

تهادت بنا المرسيدس فى شارع الكورنيش قبل أن تقف أمام كازينو كاليفورنيا، قال :

– عازمك على فنجان قهوة.

جلسنا إلى مائدة تلتصق بسور قصير يفصلنا عن النيل، مر بنا زورق بخارى على متنه أسرة ذات ملابس شعبية، أحد أبنائها يحتضن طبلة يدق عليها، يترنمون بأغنية (لولاكى).. تذكرت عبورنا النيل معا كل صباح فى المركب الشراعى والشتائم المتبادلة بينه وبين المراكبى عن الأجور المتأخرة، قال:

– أنت عرفت بأنى أصبحت من أكبر رجال الأعمال فى البلد،

– سمعت، ربنا يوفقك.

جاء الجارسون، قال له :

– لم أذق طعاما اليوم، هات لى ثلاث سندوتشات كبدة، واثنين كلاوى، وهات بسطرمة ومخللات وعصير برتقال ماذا تطلب يا حمدى ؟

– قهوة سادة.

انصرف الجارسون، قال :

– هل تذكر زميلنا منصور حسين الذى كان يضع مناخيره فى السماء لتفوقه فى الدراسة ؟

منصور حسين والأساتذة يتنبأون له بمستقبل باهر بشرط أن يخفف من آرائه السياسة، علاقته العاطفية بأمينة ذات القوام الممشوق والابتسامة الفاتنة، محاولات (خفيف اليد) فى استمالتها، غيرته الشديدة من هذه العلاقة، المعركة التى أسفرت عن الجرح، الغائر فى جبهته، زواج الحبيبين بعد قصة غرام أسطورية، قلت :

– أذكر منصور حسين طبعا، أين هو الآن ؟

– موظف عندى، يدخل مكتبى ويظل واقفا أمامى لا يجرؤ على الجلوس إلا إذا أمرته.

منصور حسين يقف أمامك أنت ؟ .. وماذا عن أمينة ؟

– سلامات يا حمدى ؟

– الله يسلمك.

– أنا مشتاق لك جدا، لا أنسى لك شهادتك حينما اتهمنى ابن ناظر المدرسة بسرقة نقوده، أنت الوحيد الذى

وقف معى.

لكنك لم تحدثتنى عما فعل الزمان بأمينة ؟

- تهمة باطلة طبعاً.

جاء الجارسون بالطعام، انهمك فى التهامه بنفس السرعة التى كان يلتهم بها سندوتشات الزملاء، قال وهو يمضغ.

- مكتب المدعى الاشتراكى استدعانى.

- خيرا ؟

- وضعوا أموال شريكى السابق تحت الحراسة بحجة أن ثروته جاءت عن طريق غير نظيف، لكننى طلعتُ براءة.

- الحمد لله.

- طول عمرى أعمل حساب ألف سنة مقدماً، حققوا معى، وقالوا موقفك القانونى سليم، لكننا على المستوى الشخصى غير مقتنعين.

- وبعدها ؟

- ولا حاجة، المال الحلال لا يضيع ثم أننى لم أضع يدى فى جيب أحد كل جنيه عندى جاء نتيجة تعب.

لكن مـاذا عن أمـينة؟.. هل ثمَّـة مـضـايقـات بعـد أن أصبح زوجها لا يجلس إلاّ إذا أمرته ؟

حطت ذبابة فوق الجرح الغائر فى جبهته، هشّها وهو يقول :

- أهل بلدنا لم يصـدقـوا أن ربنا فـتح علىَّ بهـذه السـرعـة، ناس مـثل البـهـائم، لا يعـرفـون أن الله يعطى الحكمة لمن يشاء.

لكن مـاذا عن أمينة ؟.. هل مـازالت تصر على آرائها السياسية كالعهد بها فى مناقشاتنا الصاخبة ؟

سقطت نقطة دهن على كُم بدلته الحريرية البيـضـاء، مسحها بورقة شفافة لكنها تركت بقعة داكنة، قال:

- منذ شـهر زارنى الحـاج عبد الكريم الزهران، كان يجمع تبرعات لبناء مستوصف فى البلد، دفعت له خمسة آلاف جنيه.

- بارك الله لك

- ذات مرة رفض إقراضى خمسة جنيهات، تبرعت له وحدى بما يدفعه ألف واحد من أهالى بلدنا لكى أشعره

بالإذلال.

وهل تشعر أمينة بالإذلال الآن ؟.. كيف السبيل إلى معرفة أخبار صاحبة الوجه الذي سحرنا جميعا ؟

– قلت إن زميلنا القديم منصور حسين يتعاون معك ؟

لوَّح بيده في استهانة :

– مجرد موظف عندي بين عشرات.

– أين يسكن يا تُرى ؟

– كان يسكن في حي حقير لوربطوا فيه القرد لقطع السلسة وهرب، أعطيته شقة فاخرة في إحدى عماراتي وبإيجار منخفض ودون «خلو رجل».

هل ضاعت أمينة؟.. انطفأت تلك اللمعة الذكية في العينين تنم عن اعتزاز صاحبتها بنفسها؟.. أذلتها الحاجة ولم تعد تعارض أحدا؟.. تحولت إلى كائن ذاهل لا يفهم شيئا مما يجري حوله ؟

– فيك الخير..

دفع الحساب وخرجنا .. شقت بنا السيارة شارع الكورنيش.. برج القاهرة بدا ضئيلا بجانب الأبراج

الزجاجية العملاقة.. ثمّة صياد عجوز بجلباب باهت يلمّ شبكته فى صبر موروث.. حامت فوقه موجة من العصافير لم يحسّ بها... مواسير الفندق الكبير تتمطى فى الشارع لتصب فى النيل.

- أين تحب أوصلك ؟

- ميدان التحرير.

فاصل من معزوفة
الوداد القرمزي

قال طلعت بك: جاءتنا أوامر بجمع الأسلحة من الاهالى.

فقلت: المسألة صعبة، كل حملاتنا فشلت، البنادق تظهر فى الأفراح وتختفى عند النكَبات..

– عندى خطة، نطوف القرى ونقول للأهالى الدولة قررت إسترداد القدس وتطلب متطوعين بأسلحتهم، فإذا جاءوا بها، انتزعناها منهم.

– لن يصدقوا، الأهالى يستريبون فى أى شىء، من ناحيتنا.

– نستثير حماستهم، نحدثهم عن الوطن والتضحيات إلى آخر هذا الكلام، ولاحظ المسألة فيها ترقيات ومكافآت كبيرة.

لم أرتح لهذا، لكننى اضطررت إلى الموافقة.

- ٢ -

كنت أحرث أرضى الشرقية حين سمعت الضجة:

– ما الحكاية ؟

– الحكومة تريد تحارب اليهود لأنها سمعت بأنهم يريدون هدم القدس.

– أولاد الفطيس ؟

– العمدة أرسل رجلاً يركب حصاناً يطوف الآن بالنجوع، مطلوب من كل واحد أن يحضر ليسمع كلام الحكومة.

وجدت الناس أمام ديوان العمدة مثل يوم القيامة، خمسة من الكبار يضعون على أكتافهم الحديد الأصفر اللامع يتكلمون فى قت واحد.

أحدهم صوته مخنوق، تهيأ لى أنه يبكى وهو يقول الحكومة مديونة وتريد منكم مساعدتها وحين تحدث عن ناس فلسطين الذين حكمهم اليهود ويدخلون عليهم البيوت ويمدون أيديهم إلى صدور بناتهم، بكى شيخ العرب الحاج عبد السلام الخطيب فبكى أكثر الناس.

بعد صلاة العشاء تجمعت نجوع البلد أمام مضيفة العمارنة تكلَّم جابر العبّادى، والشيخ بسكاوى أبو مصطفى، ومحمد الجهينى، وجرجس أبو سيفين، وإبراهيم الخزرجى، والمقدس نجيب أبو مرقص، وعبد العظيم الجعفرى، وشيخ العرب الشيخ عبد السلام الخطيب وكثير من الزعماء.

حدث هرج ومرج من زهران الرمادى الذى قال أنا خائف من الحكومة، لكن الناس شخطوا فيه فسكت، واتفقت الجموع فى النهاية على أن كل عائلة تقسم نفسها: نصفها يسافر ونصفها يقوم بشؤون «العوايل» على أن يُعفى من السفر الذين ليس لهم اخوة - أو ابناء - رجال: أو ما زالوا تحت سن البلوغ، كذلك من له أم أو أب غير قادر على خدمة نفسه، والذين أطيانهم مرهونة، ومن لهم أخوات أو بنات فى سن الزواج.

وكان العمارنة كرماء أمام مضيفتهم، قاموا بارك الله فيهم، بالواجب فأخرجوا صوانى الطعام فى آخر الليل ووزعوا الشاى والسجائر والمعّسل وغنّى عبد السميع،

شاعر العمارنة، للناس موّال: «زمان يا درَق مامسكْناك» فأبدع وأطرب، قبل انصراف الناس قال لهم شيخ العرب الحاج عبد السلام الطيب: «تسامحوا» فأخذ الناس يعانقون بعضهم بعضاً، سامحنى يا فلان، ربما لا نلتقى مرة أخرى، يا رجل قل كلاماً غير هذا، سنلتقى فى هذا المكان بعد النصر، إن شاء الله، أو نلتقى حول حوض حبيبنا المصطفى.

اتفقتُ مع أخى عبد الباسط أن أسافر ويزرع هو أرضى، فى جوار أرضه، ويتولى أمر «العويلين» واعترضت امرأتى «فاطنة» وبكت لكننى أقنعتها بأن العمر له يوم موعود لا ريب فيه - كما قال شاغر الجعافرة - مثل قمح الحصاد.

وكانت ماسورة بندقيتى تتحرك داخل خشبتها، ذهبت بها فى الصباح إلى أولاد المرحوم عبدالعال الهلالى فى البر الشرقى، وجدت حوشهم مليئاً بالناس يصلحون بنادقهم. ظللت أنتظر حتى جاء دورى قبل غياب الشمس. ورفض ولدهم (المدثّر) المبلغ الذى قدمته إليه إلا بعد أن

حلفتُ عليه بالطلاق، ثم اشتريت ذخيرة بنصف الثمن لأننى أعطيتهم مئة ظرف من الظروف النحاسية الفارغة ليعبئوها فى مصنعهم الجديد.

- ٣ -

انشغل طلعت بك فى التهام سندوشات الهامبورجر، وكنا فى نادى المركز، فلم يُعر الذين عارضوه من الزملاء أى اهتمام، كان ما قاله بفم مزدحم بالطعام أن الهدف من خطته سيكون فى صالح الجميع، إذ لم يكن الشخص من العامة يرفع عينه فى وجه الإدارة، والأمور يجب أن تعود إلى ما كانت عليه، لتكون النظرات موجهة إلى مكانها الطبيعى: الأرض

انسحب بعض الزملاء غاضباً، منهم النقيب سامى والملازم عاطف، حاولت منعهم لكى يساعدونى فأصروا، وازداد تشدُّد طلعت بك، اضطررت إلى مغادرة الاجتماع عندما قيل لى إن هناك مكالمة من القاهرة، كانت «عبير» على الخط، سألتنى عن سبب تأخير أجازتى، قلت ثمّة مشكلة لا ينبغى الحديث عنها فى التليفون.

قالت متهكمة: هل هناك أسرار يستحسن ألا أعرفها؟ أفهمتها أنني لا أقصد هذا، قالت أنت دائماً هكذا، حزنت، لم أستطع إقناعها فقلت لنؤجل هذا الحديث إلى أن نلتقي، بدا صوتها غير طبيعي، أنهت المكالمة بأخبار سيئة عن «رشا» التى هجرت خطيبها، وعدت إلى الاجتماع لمناقشة طلعت بك فلم أجده ليحدث ما يحدث ولتنطبق السماء على الأرض، هذه حياة لا تستحق أن تُعاش.

- ٤ -

فرغت البلد من الناس، هذه فرصتي.. تسلقت سياج جنينة الحاج منصور أبو سالم وعبأت جوالاً من ثمار المانجو لكننى خرجت به بشقّ الأنفس، سرت فى الطريق التحتانى متوارياً بين نخل أولاد إسماعيل، ثم صعدتُ الجسر الذى يشق غيطان السوالم، وكانت «الأرزة» عالية والحمد لله فوارتنى عندما لبدتُ فيها، لكننى كدت أموت من الحر.

وأنا فى مكمنى رأيت شريف الياقوتى عليه قفطان

شاهى أصفر ويركب الحصان الأسود الذى يسمونه جونسون ويهبط به فى اتجاه النيل، تعجبت من وجوده فى البلد الآن، حين واراه الجرف وغاب عن ناظرىّ، خرجت متسللاً حتى اقتربت من مداخل نجع السوالم، لم يصادفنى مخلوق، الناس نصفهم ذهب إلى حرب اليهود ونصفهم أقام فى الغيطان، دفعت الباب بقدمى فانفتح وجدتها تقف فى صحن البيت بالثوب الحرير الشفاف، وضعتُ أمامها جوال المانجو فظهرت غمازتاها وهى تبتسم وسألتنى:

– فى حدّ شافك ؟

– واصل ...

كان جسدها فى طراوة رُغفان القمح لحظة خروجها من الفرن.

قلت لها: رأيت شريف الياقوتى عليه قفطان شاهى يركب جونسون وينزل إلى النيل، قالت: إن شقيقه الموظف الكبير فى الحكومة زارهمّ وقال لهم لا تحملوا السلاح ولا تخرجوا مع الناس، جميع أهل البلد خرجوا إلا عائلتهم.

- من قال لك ؟

تضاحكت وهى تقول بفخر :

- شريف نفسه كان عندى هنا.

أغاظنى هذا لكننى تظاهرت بعدم الاهتمام وسألتها:

- متى أعود إليك ؟

- فى أى وقت يكون فيه النجع من غير ناس

- تساهيله عجب !

- ٥ -

نجحت خطة طلعت بك رغم أنف الحنبليّة الذين اعترضوا. فى اليوم الذى حددناه جاءتنا جموعهم من القرى والنجوع كالسيول التى تهبط هنا من الجبال وتهدم البيوت، كان المنظر أكثر من مثير، لم أكن اتخيل أن هؤلاء البسطاء بجلاليبهم الباهتة يملكون كل هذه الأسلحة، ظهرت البنادق الروسية والإنجليزية والتشيكية من آلية ونصف آلية، لكن معظمها من بنادق «لى انفيلد»، وإن كان الأمر لا يخلو من بنادق قديمة أعتقد أنها من العصر العثمانى، ورأيت رجلاً تعدَّى السبعين يلتف بحرام

صوفى متآكل الأطراف فى يده بندقية حديثة وفى جواره غلام لا يتعدّى الرابعة عشرة يمسك البندقية من الماسورة واضعاً إياها بالمقلوب على كتفه كأنها عصا.

ساعدونا فى تجهيز المعسكر وحفر الخنادق وإقامة خط النار، ووضعنا لهم العلامات التى يصوبون إليها.

نظمناهم فى صفوف كل صف من عشرة مع كل واحد جندى من المركز بعد أن صرفنا لهم الطلقات.

فى بداية اليوم الأول فقدنا السيطرة عليهم، كان رصاصهم ينطلق نحو الهدف كأسراب الجراد حتى أن طلعت بك أمسك برأسه بين راحتيه يسد أذنيه من الضجيج.

المدهش أن تصويبهم فى غاية الدقة حتى بدا لنا تدريبهم على التصويب مجرد عبث.

ضربنى طلعت بك على كتفى وقال مقهقهاً :

– تخيل عنواناً على ثلاثة أعمدة فى جميع صحفنا وتحته صورتك يا بنى ؟

مضت الآن أربعة أيام وفى نهاية كل يوم يعودون إلى

قراهم ومعهم أسلحتهم والسعادة تشع من أعينهم ولا حديث لهم إلا عن استرداد القُدس.

- ٦ -

كنت أعرف الموضوع من أول يوم يابوى... لكن الناس لم يصدّقونى.

قالوا لى أنت قلبك جاحد ولا تشعر بالشفقة على إخواننا الذين تتعرض نسوانهم لقلة أدب عساكر اليهود، ثم كيف نأكل ونشرب مثل العجول وأولاد الفطيس يهدمون القدس ؟

قلت لنفسى ربما أنا غلطان ...

فى اليوم الخامس من التدريب طلعوا لنا فى الأنظرون!... بعد أن فرغت بنادقنا من الذخيرة، فوجئنا بهم يقولون، سلِّموا اسلحتكم.

– ليه يا بوى ؟

– ننظفها ونعيدها إليكم باكر..

– ننظفها نحن ..

– لابد من تسليمها ..

ضم الناس بنادقهم إلى صدورهم وهم يتحسسونها كما يفعل المرء حين يضم طفله الذى ضربته السخونة إلى صدره، وقال واحد من «الكُبارات» الذين تلمع على أكتافهم الصفوف النحاسية :

– سنكشف عليها بالأجهزة الحديثة وهذا لمصلحتكم

– طوال عمرها شغالة زين من غير كشوفات.

– هذا أمر، سعادة الباشا المدير أصدر هذا الأمر بنفسه...

– مع احتراماتنا للرجل الكبير الذى ذكرتموه الأمر وما فيه تسليم السلاح مثل تسليم النسوان، يرضيه نسلم نسواننّا ؟

فوجئنا بالخشبة الغليظة ذات اللونين الأبيض والأحمر تقف فى وجوهنا كما يحدث عند مزلقان السكة الحديد، ورأينا العساكر يدورون حول الأسلاك الشائكة من الخارج ويوجهون مواسير بنادقهم ناحيتنا :

– سلّموا الأسلحة من غير مناقشة، ستعود إليكم بعد تنظيفها، هيا، لا تضيعوا وقتنا.

دار الناس حول بعضهم وهم يلغطون مثلما تدور أوراق الشجر اليابسة حول بعضها فى دّوامات الهواء... وكان الرجل الكبير الذى جاءنا باكياً فى ديوان العمدة يفتح فمه ويبتسم عن أسنان صغيرة تشبه أسنان القط حين يلاعب الفأر الدائخ.

أدخلت يدى فى جيب الصدريّة وأخرجت الطلقات التى كنت أحتفظ بها على سبيل الاحتياط وصرخت:

– طلاق بالثلاثة لو اعترضنى جنس بنى آدم، أطقُّه ظرفين ويحصل ما يحصل...

ويبدو أن الاهالى وضعوا كلامى القديم فى رؤوسهم، رأيت أكثرهم يسحبون ترابيس البنادق إلى الخلف ثم يدفعونها إلى الأمام بعد أن حشوها بالرصاص الذى أخرجوه من جيوبهم، وحركوا مسامير الأمان إلى الوراء، وصرخ رجل من نجع العقبة القبلية:

– تفتحوا لنا البوابة من غير كلام، أو دمها يصل إلى بحر النيل ...

انقلب الوضع، وبدأ الرصاص يتطاير فى الهواء

وأطلق شباب المنصوريّة النار وهم يزمجرون، وفعل مثلهم أبناء نجوع الرمادى، ورأيت ولداً من نجع الرقبة الفوقانية يضرب فى المليان.

- ٧ -

أنا غير مسؤول عن أى شئ... قلت هذا للمحقق... لم أوافق أبداً، ومنذ بداية اقتراح طلعت بك على رغم زعمه أن ثمّة اوامر صدرت بهذا.

انشغل المحقق فى دعك عينه، بسبب الزويعة الترابية التى طيَّرت الأوراق من أمامه، وقال كلكم تتنصلون الآن مما حدث وتضعون المسؤولية عليه وحده فى حين أنها مشتركة .

دافعت عن نفسى بكل ما أوتيت من قوة، لأننى مقتنع تماماً بأن المسؤول عن وقوع هذه المذبحة هو المرحوم طلعت.

الجلد المزركش

تجـرُّعك للسـم أهون من طلب عـونه بـعـد أن قطـع كل الخـيوط.. هل تستطيـع الإقدام على هذه الخطوة دون أن تنطفئ في داخلك شموع العزة ؟

قالت زوجتي : اذهب إليه، يستطيع حل مشكلتك وهو يشرب فنجانا من القهوة.

- أعرف، لكن..

- لا تتردَّد، المرحوم والدك من أصحاب الفضل عليه.

- أخشى أن..

- لا تخش شيئا، ألم يطلق على أولاده الأربعة اسمك وأسماء إخوتك ؟

- من قال لك ؟

- ماما ..

- ومن أخبر والدتك ؟

- هذه الأمور لا تخفى ..

- لكن الظروف تغيرت الآن.

- كان يجب أن تحافظ على علاقتك به.

- أنت تعرفين، منذ نكبة المرحوم والدنا، انفض الناس من حولنا.

- دعك من هذه الحساسية واذهب إليه.

- لا أجد فى نفسى الرغبة فى أن....

- يعنى ستجلس هنا فى انتظار الكارثة ؟

هاهى بوابة بيته بزخارفها الهندسية البارزة. سور البيت بصخوره المتبلِّدة يرفض أن يُظهر لأحد عما وراءه.. فتح لى رجل فى حدود الخمسين يرتدي جلباباً ممزقا عند الكتف، هز لى رأسه مستفسرا ثم تراجع ومد يده خلفه..

صف من أشجار «الجازورينا» كأنها حرس الشرف.. طرقة تشق أحواض النجيل جُمِّلت بالحصى الصغير، عمودان من الرخام أمام كل منهما تمثال لنمر يكشِّر عن أنيابه.. النمران طُليا باللون البنى الفاتح مع زركشات بيضاء توحى بالجلد المرقَّط.. بضع درجات صعدتُها لأجد نفسى فى شرفة عريضة تطل من ناحيتها الأخرى على

تعريشة عنب تحتها رقدت كلبة شهباء تُرضع صغارها..

جلستُ فى صالون واسع يكفى لخمسين شخصا. فى الجدار المواجه سجادة عليها رسم لرجل يرتدى زىَّ الرُّهبان.. ملابسه وملامحه توحى برسوم العصر القبطى المتأثر بالفن اليونانى القديم، وإن كانت تعبيرات وجهه مصرية من انكسارتها. ثمَّة سجاد على الجدران الأخرى امتلأت بالمآذن والقباب وضحت من بينها منائر المسجد الحرام ..

دخل شاب أعتقد أنه ابنه.. من منهم هذا يا تُرى ؟ .. صافحنى وجلس إلى مقعد مجاور.. فى حدود العشرين عليه جلباب منزلى مُحلى بالقصب وبلا أكمام..

- الخادم قال إنك تريد أبى.

- نعم ..

- هو نائم، لكن هذا موعد استيقاظه.

- سأنتظره، لكن لم أعرف، هل أنت الأستاذ حاتم أم طارق، أم خالد، أم حسين ؟

رفع حاجبيه وابتسم فى سرور: حسين .

– أهلا وسهلا ..

– أنت تعرف إخوتى ؟

كدتُ أقول إنه يحمل اسمى، لكننى أمسكت.

– أسمع عنهم كل خير.

من باب جانبى دخل أحمد الفنجرى.. لشدَّ ما غيَّرته الأيام.. بدا كعود البوص الجاف، الوجه متجهم ملئ بالتجاعيد كأن صاحبه يحمل هموم العالم، عيناه منتفختان من أثر النوم، عليه روب دى شامبر من الحرير الأزرق، لم يزد على أن رفع حاجبيه وخفضهما ثم قال (أهلا) وأنا أذكر له أسمى واسم أبى.

قام ابنه واختفى وراء الباب الجانبى، دخل الرجل ذو الجلباب الممزَّق عند الكتف يحمل صينية عليها فنجان قهوة.. أنا فى حاجة إلى فنجان قهوة فعلا يساعدنى على فك عقدة لسانى، اقترب الرجل منه ومدَّ له الصينية، تناول الفنجان وقال بلهجة عتاب :

– لماذا لم تحضر فنجانا آخر للأستاذ ؟

سارعت أقول : شكرا، أنا لا أشرب القهوة مطلقا.

لم يعلق وبلعت ريقى بصعوبة.

أخذ رشفة من الفنجان قبل أن يسألنى: كيف حال والدك ؟

ترددت قبل أن أقول : توفى إلى رحمة الله.

رفع حاجبيه وخفضهما : متى ؟

- منذ ثلاث سنوات تقريبا.

التفت إلى يمينه ووضع كفَّه على سطح منضدة صغيرة يبحث عن شئ ما : الله يرحمه، كان رجلا طيبا ثم بعد فترة صمت :

- أخوك الكبير حامد، ما أخباره؟

- أخى حاتم.. بخير.

فتح درج المنضدة الصغيرة ودس يده فيها : أين هو الآن ؟

- سافر أوروبا وانقطعت عنا أخباره.

- لماذا ؟

- مضايقات فى عمله اضطرته للاستقالة.

- بسبب السياسة طبعا.

– نعم ..

– وأخوك الآخر.. حازم ؟

– طارق ؟.. مر بظروف غير طبيعية.

– من أى ناحية ؟

– أُعتُقِل لفترة ولما خرج لم يعد كما كان.

– ما الذى تغير فيه ؟

– بصره، كف.

توقف عن البحث داخل درج المنضدة وتناول فنجان القهوة :

– لا يرى مطلقا ؟

– يرى، لكن بصعوبة.

انتهى من القهوة ووضع الفنجان على المائدة أمامه :

– والدتك حزينة طبعا.

– توفيت أثناء اعتقاله.

عاد يبحث بكفِّه داخل درج المنضدة:

– الله يرحمها، كانت سيدة فاضلة لكنها ظُلمت مع أبيك.

أخرج يده بعلبة فى حجم علبة الكبريت، فتحها وأخذ منها شيئا بين سبَّابته وإبهامه، دسه فى فتحتى أنفه واستنشقه بصوت مسموع ثم عَطس: والدك أضاع ماله وصحته فى السياسة والكلام الفارغ.

– إرادة الله.

– الله جعل لنا عقلا، طالما نصحته أن يتنبه لمصلحته الشخصية .

عطس مرة أخرى وبانت الحدَّة، فى صوته: حتى أولاده جعلهم على شاكلته، هل تظنون أنكم ستغيِّرون العالم ؟

تضاحكت قائلا: مستحيل طبعاً.

وجَّه لى نظرة محذرة من خلال حاجبين كثيفين :

– لك صلة بالسياسة ؟

– أبداً والله .

ران الصمت ..

***

– هذا العالم يجب أن يتغيَّر يا أستاذى.. سر بنا ونحن من ورائك، لو اقتحمت بنا جهنم لاقتحمناها معك..

سوف أفخر فيما بعد بأننى عشت فى عصرك، ولو استطعت تغيير اسمى لما اخترتُ غير لقبك، لكن يكفينى فخرا أن جميع أولادى على أسماء الأنجال.

***

جاء ذو الجلباب الممزق عند الكتف وحمل فنجان القهوة الفارغ، خاطبه وهو يعيد العلبة الصغيرة إلى الدُرج : قل لحسين يأتى.

جاء ولده، قال له وهو يقف (ابقَ مع الأستاذ) ثم ابتسم فى وجهى : البيت بيتك.

اتجه إلى الباب الصغير، غاب عن ناظرىّ، قال لى حسين : مرحباً..

– أهلا وسهلا.

– أنا وأصحابى عزمنا فريق «الأسد» لزيارتنا.

– فريق كرة القدم ؟.

– نعم، بابا تبرَّع لنا بأرض الملعب وسط مزرعتنا التى تبعد عن هنا بخمسين كيلو.

– خيراً فعل.

- لولا أننى مرتبط بموعدى معهم، والمسافة بعيدة كما ذكرت لحضرتك، لبقيت معك أطول وقت ممكن.

- تفضَّل إلى موعدك، أنا أيضا مرتبط بموعد، لكن هل الوالد سيتأخر ؟

- بابا ينظم وقته بالدقيقة، لا يجلس فى الصالون إلا مع فنجان القهوة الذى رأيته.

تساءلت وأنا أقف : ثم ؟

- يكون السائق فى انتظاره ليوصله إلى مقر الحزب، لكن البيت بيتك.

وكان الرَّاهب القبطى يرمقنى بتعبيرات وجهه المنكسرة.

الغُبَار

التقينا فى قطار المجَرى المتجه إلى أسوان، هو فى طريقه إلى سوهاج وأنا إلى نهاية الخط. تآلفنا بسرعة على طريقة الصعايدة عندما يخلون إلى بعضهم وتلذُّ لهم المبالغة فى ذكر محاسنهم..

قال إن مظاهر الحضارة الغربية طغت بقيمها الدخيلة على القاهرة والوجه البحرى، وإن الأمل الوحيد فى مقاومتها ينعقد على الصعيد الذى لا يزال يحافظ على أصالتنا، وافقته على ذلك صادقا، فقال إن الصعيد هو الذى يسترد مصر كلما تعرضت لاحتلال أجنبى أو غزو ثقافى، واستشهد بالهكسوس الذين أغرق طوفانهم البلاد فهبَّ الصعيد لطردهم.. سألنى إن كان لى أولاد، فقلت ولد واحد اسمه (محمود)، قال إن لديه ولدين بأسماء «بشاى» و«بشارة»، ثم ضحك وقال إنه تعمد أن يبدأ اسميهما بحرف الباء تيمنا باسم والدتهما، وإنه ينوى

إرسالهما إلى الصعيد لينشأ فى بلاد الرجولة الحقَّة، بعد أن لاحظ تقليدهما لأبناء سكان العمارة التى يقيم فيها بحى الزمالك، حيث لم يعد المرء يفرق - كما قال - بين الولد والبنت..

قلت إننى لم أزر الصعيد منذ عشر سنوات، فقال إنه أيضا لم يره منذ سبع سنوات، وهذا خطأ عظيم، إذ لا يصح أن يقْتلع الإنسان من جذوره، وهذا هو سبب سفره الآن، إذ ينوى إقامة بيت فى قطعة أرض سكنية آلت إليه بالميراث، وإنه فكر فى هذا المشروع حينما فوجئ بولده الأكبر - الذى لا يزال فى المرحلة الثانوية - يشعل سيجارة أمامه..

قلت إننى اقتربت من الأربعين، ولم أجرؤ حتى هذه اللحظة علي إشعال سيجارة أمام أبى، فقال إنه لم يجلس بجوار أبيه - أو أحد أعمامه - فوق الدكَّة أبدا، وإن مكانه الطبيعى - هو وأبناء أعمامَه - هو الحصيرة، طالما كان أحد كبار السن فى العائلة موجوداً، وحتى بعد أن

أصبح مديرا عاما لم يخرق هذا التقليد..

قلت إن المؤرخ اليونانى (هيرودوت) الذى زار مصر فى أواخر العصر الفرعونى، ذكر فى كتابه، أن الشبَّان الذين يجلسون فى الطريق العام، يقفون فى الحال كلما مرّ عليهم رجل كبير السن، ولا يجلسون إلا بعد أن يتجاوزهم، فقال فى حماس إنه يحمد الله لأن هذا الذى ذكره «هيرودوت» لا يزال حقيقة واقعة فى الصعيد العظيم..

فى بداية العربة ظهر عامل عربة الطعام، فقلت سأطلب عشاء لكلينا، اعترض رافعاً كفَّه تجاه وجهى وقال إن طعامهم لا طعم له، مسلوق على طريقة الإنجليز فى بلادهم، ثم ابتسم للعامل وناوله ورقة مالية صغيرة وطلب منه إحضار مائدة لنأكل عليها فاستجاب فى الحال..

وقف وتناول من الرفِّ حقيبة من البلاستيك، أخرج منها ورقة بيضاء نظيفة فرشها على المائدة، ثم أخرج كيسا شفَّافا امتلأ بالبيض المسلوق، وكيسا آخر به خبز

بلدى، فضلا عن أكياس كبيرة وصغيرة حفُلت بالجبن الرومى والبسطرمة والطرشىّ والملح والفلفل والشطة، وانهمكنا فى الأكل بشهية عظيمة..

عاد عامل عربة الطعام وسألنا إن كنا نريد شاياً أو قهوة فقال له ضاحكا (مهمتك انتهت) ثم أخرج من الحقيبة (ترموس) وكوبينْ صغيرين صب فيهما شايا أسود ثقيلا فى لون الحبر، وقال ضاحكا إن (الترموس) يذكِّره بالكوز الذى كان يشرب فيه الشاى مع أعمامه فى الحقل أيام التلمذة..

بعد بزوغ الفجر دخل القطار حدود سوهاج، فذهب إلى دورة المياه، وعاد منتعشاً بعد أن غسل وجهه وحلق ذقنه ومشط شعره الأكرت.. تصافحنا بحرارة، بعد أن تبادلنا العناوين، وهبط، وبقيت وحدى أغفو قليلا ثم أفيق إلى أن هبطتُ فى محطتى، قبل مدينة اسوان بحوالى نصف الساعة..

للوهلة الأولى خُيِّل إلىَّ أننى هبطت فى محطة أخرى.. سيارات من مختلف الأنواع والأحجام كأننى فى أحد

الأحياء الشعبية القاهرية بما فى ذلك الحفر والمطبَّات وأكوام النفايات وموجات الغُبار..

وقفت أتلفت حولى حائرا للحظات، ولولا المسجد والكنيسة والمعبد الفرعونى، التى تعرفنى وأعرفها، لما صدَّقتُ أننى فى «البندر» الذى تتبعه قريتى..

اختفت المساحات الخضراء على يسار الهابط من رصيف المحطة، وحلَّت مكانها عشرات المشارب والمطاعم وورش إصلاح السيارات، فضلا عن البوتيكات التى تعرض أحدث أنواع الأجهزة الكهربائية..

ميدان المحطة يعجُّ بالسَّابلة يرتدون البنطلونات والقمصان التى تمثل كل فئة، وكاد الجلباب أن يختفى، أما العمامة التقليدية، فقد انقرضت وتركت الرؤوس عارية..

تقدم منى شاب نحيل، طويل القامة، شديد السُّمرة، فى السابعة عشرة تقريبا، له سوالف طويلة على طريقة شباب «الهيبز»، قدم لى نفسه باسما على أنه (عصمت) ابن أختى (كوثر) فتعانقنا..

قلت له إننى لم أكن لأعرفه لولا أن ذكر لى اسمه إذ لم أره منذ كان فى السابعة، فقال إنه عرف فى الحال، لكنه تردَّد حين رأى المشيب يغلب على شعر رأسى..

حمل حقيبتى الصغيرة وهو يرحب بى، وهبطنا درجات سلم المحطة، فى طريقنا إلى موقف السيارات المتجهة إلى بلدنا..

سألته عن أبيه وعن أمه، فقال إن والده كان يودُّ المجئ لمقابلتى لولا أنه أصيب بوعكة، وإن أمه سعيدة جداً بوصولى، وسألته عن حاله فقال إنه ينتظر نتيجة الثانوية العامة، فتمنيت له التوفيق.

أثناء سيرنا رأيت قرية (الفواطِم) من بعيد، مازالت كما هى، ببيوتها الطينية البدائية، أكثرها آيل للسقوط، على سقوفها غابات من هوائيات التليفزيون..

حين انحنُى ابن أختى ليضع حقيبتى الصغيرة فى حقيبة السيارة الخلفية، رأيت على جيب بنطلونه (الجينز) مستطيلا أزرق يمثل العلم الأمريكى بنجومه المتراصَّة..

ركبنا السيارة، فى انتظار اكتمال عدد الركاب، ومضى يرحب بى، ثم أخرج من جيب قميصه علبة سجائر أجنبية، ناولنى سيجارة، ووضع أخرى فى زاوية فمه اليمنى، بعد أن اتكأ إلى الوراء ومدَّد ساقيه، ومضى ينفث الدخان فى استرخاء..

قبل المغيب

اهتزّت أعواد القصب فجفلَ حماره.. الطريق معتم تكتنفه حقول القصب.. فوجئ برجلين يظهران أمامه.. تيبست كعباه على جانبى الحمار الذى مدَّ أذنيه إلى الأمام وتقهقر به.. أقصر الرجُلَين يصوِّب بندقيته نحوه فى حين كان الآخر يعلقها على كتفه.

قال القصير بلهجة آمرة : انزل.

بصوت مرتعش من أثر الشيخوخة والمفاجأة قال :

- أنا عيسى الخلفاوى يا ولدي..

أطلق أطولهما ضحكة قصيرة خافتة بدت له ساخرة:

- حصلت لنا البركات.

- أنتم لستم من بلدنا؟

- أنزل وهات الفلوس.

هبط بصعوبة وهو يسأل القصير :

- أنت من رجال عبد الهادى؟

- عبد الهادى من ؟

- الذى تسمونه هتلر ..

- كيف عرفت ؟

- خذنى إليه.

- هات المحفظة من غير كلام

- قل له عمك عيسى الخلفاوى يريد أن يراك

دفعه القصير فى كتفه بفوهة البندقية :

- أنت ناوى تناسبنا ؟.. هات الفلوس.

- ليس معى أى شئ.

- كذّاب، نحن رأيناك فى الصباح تقود بقرة إلى السوق.

- هه ؟.. لم تكن بقرتى.

- أنت رجل كبير السن فلا تجبرنا على إهانتك.

- قولوا لهتلر عمّك عيسى الخلفاوى كان ......

دفعه القصير بيده مزمجرا:

- هات الفلوس أو يكون آخر أيامك

تطوّح لولا أن سنده الطويل، دخلت يده النحيلة

المرتعشة فى جيبه وخرجت بمحفظة نقود ضخمة فى لون قربة السقَّاء، بعض أزرارها سقطت وتركت مكانها ثقوبا، مدها للقصير وملامح وجهه بدت كمن يهمُّ بالبكاء، قال:

- الله وحده يعلم بالحال.

علَّق القصير البندقية على كتفه وفك أزرار الحافظة، تحسس داخلها ثم وضعها فى جيبه وخاطبه بخشونة:

- اركب حمارك وربنا يعدِّل لك الطريق.

- خذنى لهتلر.

نهره الطويل : رح لحالك أحسن لك.

بصعوبة امتطى الحمار، حين تحرك به جاءه صوت القصير متوعِّدا:

- لو التفت وراءك، الطلقة تدخل ظهرك.

لم ير أمامه والحمار يخطوبه فى الطريق الذى انسحبت منه الشمس، غير وجه زوجته وابنته المطلقة وأطفالها يتحلَّقون حوله بأفواه مفغورة.. باع البقرة الوحيدة بعد أن جفَّ منها اللبن ليشترى بقرة جاره المعروضة للبيع بعد أن ولدت، الآن لا أدرك هذه ولا تلك،

كيف ستكون أيامه القادمة واللبن قوام البيت، منه الإفطار والغداء والعشاء، الجبن والحامض والرايب والسمن؟.. ثم كيف يحرث أرضه الآن وكان يتعاون مع أحد جيرانه، يقترض منه بقرته ليحرث بها ويقرضه إياها حين يحرث الآخر؟.. أين كان هذا اليوم الأسود الذى لم يخطر له على بال، هل فعل ما يغضب الله دون أن يدرى؟

- ياعم عيسى..

سمع نداء خلفه، ضغط بكعبيه على جانبى الحمار فتوقَّف به ، التفت وراءه، رأى بعينيه الكليلتين أشباحا تلوِّح له: تعال.

ظل واقفا لفترة متوجِّسا وارتفع الصوت أكثر:

- لا تخف يا عم عيسى.. الريس هتلر يريد أن يراك.

مال إلى الأمام قليلا وضرب رقبة الحمار بكفِّه فى رحمة فاستدار به.. حين اقترب رأى الرجلين، قال له الطويل بلهجة ودود :

- امش وراءنا.

بقعة معشوشبة فى نهايتها شجرة سَنْط غزيرة

الفروع، رأى تحتها عبد الهادى بوجهه البيضاوى الباسم وقامته القصيرة، يلف فوق رأسه شالا ذهبىً اللون، حوله أربعة رجال يشربون الشاى وبنادقهم مسنودة إلى جذع الشجرة، تقدم منه عبد الهادى باسما: مرحبا يا عم عيسى.

مال إلى الإمام مستندا إلى رقبة الحمار لكى يهبط، أوسع عبد الهادى خطواته ووضع كفّه تحت إبطه، ساعده على النزول، عانقه، اخرج الحافظة من جيبه ومدها له :

– لا تؤاخذنا يا عم عيسى.. لما قالوا لى أخذناها من رجل يسأل عنك وعرفتك، قلت لهم عم عيسى أفضاله علينا.

أنا لا أنسى الأيام التى كنت أنا وأخى نذهب إليك فى الحقل عند نزول المحاصيل، فى كل مرة تملأ لنا كيسينا الصغيرين بالقمح أو الشعير أو الفول أو البلح ولم تردّنا خائبين أبدا.

– كان خير الله كثيرا فى تلك الأيام، ليتها دامت.

– بعض أصحاب الحقول كانوا يكشّرون فى وجوهنا،

أنت كنت تضاحكنا وتقول لنا: أهلا يا أولاد المرحوم.

- كان أبوك رجلا صالحاً بحق

- وهل شفع له صلاحه عند (متولى) الذى استرهن أرضنا وخدع أبى وهو على فراش المرض فجعله يوقع على أوراق بيع وشراء ؟

- دَع حسابه على الله.

- لن يفلت من يدى ولو اندس فى حواصل الطير.

- الموضوع أصبح صعباً الآن بعد أن صار عمدة البلد.

- هو ظن أنه سيقضى علىَّ عندما صار عمدة ولفَّق لى تهمة أدخلتنى السجن..

ثم أشار بيده إلى من حوله فى حركة دائرية:

- أنا الآن أقوى منه، سأقطع رقبته.. أى خدمة ياعم عيسى؟

- أن تتوب إلى الله.

- سأتوب بإذن الله بعد أن أقتل هذا الرجل، عندنا شاى ثقيل اشرب معنا.

- تُشكر، ألحق الأولاد قبل أن ينشغلوا.

- خذ سيجارة.

- أنت تعرف أنا لا أشربها.

- عندنا جوزة، نرص لك حجرين معسَّل، اقعد عَمِّر رأسك

- أمشي الآن أفضل، الشمس ستغيب.

- نوصلك للبلد ؟

- الحارس هو الله.

- طريق القصب عتمة، أخاف أن يضايقك أحد، يا حمدان، اطلع أنت وعبد الكريم معه لغاية آخر الجسر الشرقي.

تحلَّقت حوله زوجته وابنته وأحفاده سعد وزينات وعبد الغفور وحامد، يعبسون ويبتسمون حسب موقفه مما يرويه لهم، وارتفعت اثنتا عشرة كفًا بجوار كفيه تحمد المولى على نجاته ونجاة البقرة المنتظرة.

أخرج الحافظة، فتحها وفرش الجنيهات على الحصيرة أمامه، أحصوها معه فلم يجدوا غير نصف المبلغ.

الباطِن

التقينا مصادفة على شاطئ البحر.. تصافحنا بحرارة وأصرَّ على أن أشربَ معه فنجاناً من القهوة، مررنا على تمثال سعد زغلول ونحن نخترق الحديقة، حين جلسنا فى «التريانون» خفَّ إليه النادل يخاطبه باحترام ويبالغ فى العناية به بما يدل أنه يعرفه، طلبتُ قهوة وطلب شرابا بدون ثلج، روى لى كيف مرض ابنه الصغير وكيف عرضه على أكبر أطباء البلد، أكد للطبيب أنه من الأثرياء ومستعد للنفقات مهما كانت. على مائدة قريبة منا جلست فتاة شقراء من بقايا الأجانب فى المدينة.. بجوارها رجل اشيب يبدو أنه والدها. قال فى حرارة صادقة: أوحشتنى والله.. كيف تنسى صديق طفولتك طوال هذه السنوات؟

سقطت نقطة من الشراب على رباط عنقه.. انزعج وطلب من النادل منديلا من الورق بلهجة إمرة. قال إن أحواله طيبة ويربح فى اليوم الواحد ما بين أربعين

وخمسين جنيها، لكن نفقاته كثيرة: ابتسم فى اعتذار وقال: أنت تعرف بأننى نشأت فى جو مترف وكان متجر أبى من أكبر محلات الأقمشة فى سوق المنشية. هز رأسه وقال بنبرة أسف: لولا ذلك الحريق اللعين لكنت الآن من سادة البلد.

جاء النادل بعلبة المناديل وانحنى ينظف له رباط عنقه. فتى وفتاة دخلا وجلسا إلى مائدة قريبة من مائدة الشقراء. سألنى عن أخى الأصغر ثم ضحك قائلا إنه رآه مرة منذ بضعة شهور كان يتأبط ذراع فتاة جميلة على شاطئ كليوباترا.. قال إن جمال البنت بهره لذا فإنه شعر بالاحترام نحو أخى لذوقه الرفيع!

دخل ماسح الأحذية وأقبل عليه بصندوقه.. أقعى تحت قدميه وهو يخاطبه فى تبجيل ويقول: إن أطفاله يدعون له. حين اضطجع وهو يريح قدميه على الصندوق، بدا لى بجسده المُدملج المضغوط تحت صدريته ذات الزرائر العريضة - والنادل منحنٍ ينظف رباط عنقه - مثل لوردات الإنجليز فى القرن الماضى. قال إنه اشترى أول

أمس كمية ضخمة من القدّاحات، خرجت من الميناء مهرَّبة، دون أن يكون في جيبه مليم واحد.. طلب من صاحب القدّاحات، أن ينتظره لدقيقة واحدة وذهب إلى تاجر كبير من أصدقاء أبيه وطلب منه المبلغ. أعطى صاحب «البضاعة» نقوده وأعطى صديق والده القدّاحات، ففرح هذا لأنه سوف يربح من ورائها مبلغا طائلا، ثم أردف بلهجة استخفاف: أنه لم يحصل إلا على فارق السعر فقط، وهو مبلغ لا بأس به سدَّد كل نفقات علاج ابنه!

انتهى النادل من تنظيف رباط العنق فطلب منه زجاجة أخرى، حكى لي أن زوجة شقيقه الاكبر أحبته وطلبت من زوجها الطلاق فطلقها. ضحك وقال: إنها مجنونة لأنه من غير المعقول أن يتزوج امرأة أخيه.. ثم أنه لم يعِدها بالزواج فضلا عن أنها لم تستشره قبل أن تطلب الطلاق!

الفتاة الأجنبية انشغلت في تصفُّح مجلة مصورة ووالدها يجذب أنفاس غليونه في هدوء انتهى ماسح الأحذية من عمله فناوله ورقة مالية تزيد عن عشرة

أضعاف أجره فلهج الرجل بالدعاء ومضى. سألنى إن كنت لازلت مصراً على عدم الزواج، فأجبت بالإيجاب قال: إن عنده عروسا تناسبنى.. مدرّسة بحارة اليهود القديمة شعرها أصفر وعيونها عسلية وأبوها يعمل معه فى سوق المنشية ويربح فى اليوم الواحد مائة جنيه. حين ابتسمت ارتفع صوته وهو يقول إنه يخشى أن «تزل» قدمى وأتزوج واحدة من بلدنا فى الصعيد حيث أن النساء هناك كما قال – مثل الخَفَر !

شاركنى الضحك وقال : لا تؤخذانى فأنت تعلم أننى صريح منذ الصغر. ثمة رذاذ خفيف بدأ يتساقط لمحناه خلال الزجاج ومن اللمعة التى بدَت على تمثال سعد زغلول.. لوَّح بيده وقال : أنه يتعجب كيف رضيت بالإقامة فى القاهرة.. تلك المدينة الفجَّة التى تشاهد الأبقار تسير فى طرقاتها! أقسم إنه حين يضطر لزيارتها يدخلها صباحا ويغادرها مساء لأنه لا يطيقها حيث يعتبرها من الأرياف!

قال : إنه انزعج جداً حين عرف أن سكانها يطلقون

على الشـــارع الذى على شـــاطئ النيل اسم «شـــارع الكورنيش».. مطَّ شفته السفلى وتساءل: أيٌّ كورنيش؟.. ذلك النيل الراكد، يصطدم بصرك بشاطئه الآخر والمداخن حوله تلوث الجو. ثم فرد سبابته وقال : لا يوجد فى العالم غير كورنيش واحد فقط هو كورنيش اسكندرية !

ضحكة عالية صدرت من الفتى والفتاة لفتت أنظار الفتاة الأجنبية فابتسمت. قال: إن بيروت أوحشته.. انقطع عن زيارتها منذ بداية الحرب الأهلية وترتب عليها أن انخفضت أرباحه بنسبة النصف فى السنة الاولى للحرب.

تجهَّم حين تذكر شماتة الخصوم فى تلك الفترة وكيف اضطر لشراء سيارة جديدة لمجرد أن يبرهن لهم أنه لازال يقف على أرض ثابتة.

سألنى إن كنت أملك سيارة فأجبت بالنفى. قال إنها ليست مهمة لأنه باعها بعد ستة أشهر. بدأ المارّة فى الخارج يسرعون فى سيرهم وبعضهم يهرْول حينما اشتد المطر. أخبرنى أن شقيقة الأصغر أصبح الآن نائبا

لرئيس مجلس إدارة أحدى الشركات وشقيقة الاكبر سوف يخرج من السجن بعد سنة !

دخل بائع اليانصيب وطرف جلبابه مبتل.. حينما لمحه اتجه ناحيته وهو يحييه رافعا يده إلى محاذاة رأسه ويبتسم.

مد له ورقة مستطيلة عليها صفوف رأسية من الأرقام ودعا له بالربح. شكر البائع وأخرج من جيبه رزمة من الأوراق المالية فئة العشرة جنيهات، سحب من طياتها ورقة يانصيب قديمة وأعاد النقود إلى جيبه، القى نظرة على رقم الورقة ثم استعرض صفوف الأرقام فى الورقة المستطيلة ومطّ شفته. مزق الورقة ووضعها فى منفضة السجائر واشترى ورقة جديدة دفع للرجل خمسة أضعاف ثمنها فذهب البائع وهو يدعو له بطول العمر، سألنى عن جارنا القديم «صلاح» فقلت لم أره منذ سنوات، قال إنه التقى به منذ فترة لا يذكرها، رأى الشيب يدبُّ فى رأسه بحيث بدا أكبر من عمره بعشر سنوات علَّق بقوله إن هذه هى نهاية من يرضى أن يعمل موظفا !

ثم ضحك وقال : لو كنت فى مكانك لقدمتُ استقالتى فى الحال واتجهت إلى العمل الحر. بدا سير الناس طبيعيا فى محطة الرمل حين خفّ المطر.. من الزجاج لمحنا فتاة سمراء ملفوفة القوام تضم كتبها المدرسية إلى صدرها. قال إنه رأى ابنة عمى فى ترام الرمل منذ بضعة شهور بصحبة سيدة تكبرها سنًّا.. دفع لها ثمن التذاكر فلما أشار الكمسارى ناحيته بدا عليها الاستغراب.. قال إنه سارع بذكر اسمى واسم أسرتى وقال لها إننا كنا نتجاور فى السكن فى الزمن القديم، اطلق ضحكة خبيثة وهو يقول : إن دمها خفيف وإنه كاد يغازلها لولا أنه تذكرنى وقرر «احترامى» فى غيابى !

حين ضحكت وقلت له إنها صعيدية وليست بالسهولة التى يظنها أزاح الهواء بكفه وقال فى ثقة إننى أول من يعرف بأنه «مرسى» والرزق على الله! صمت فجأة وحدق فى الزجاج.. نظرت إلى حيث ينظر فرأيت فى الخارج شيخا يرتدى معطفا فوق جلباب أبيض، على رأسه قلنسوة تغطى أذنيه.. بدا عليه التوتر وهو يحدق فى

الشيخ ثم طلب من النادل أن يأتى به فخرج هذا الأخير مسرعا. سألته عنه فقال إنه كان من كبار تجار سوق المنشية لكن الدهر أخنى عليه. نهض وسار وراء النادل محتفظا بمسافة مناسبة ووقف قريبا من المدخل. جاء الشيخ وتجاعيده الدقيقة تبتسم معه فتعانقا. صرف النادل وانتحى بالشيخ جانبا وأخرج من جيبه كفًّا مكورة دسَّها فى يد الشيخ وعانقه مودعا. جاء وجلس بجوارى صامتا يلوح الأسى على وجهه. نفخ وقال : إن الدنيا غادرة وطلب من النادل زجاجة خامسة، روى لى قصة تخلى أولاد الشيخ عنه ثم قصة المرض الخطير الذى داهمه.. شرح لى أنه أرغم جميع تجار سوق المنشية على أن يدفع كل منهم مبلغا من المال لعلاج الشيخ.

قال : إن كبار التجار تبرعوا بمبالغ رمزية فى حين دفع الصغار بسخاء. نهضت الفتاة الأجنبية مع والدها العجوز وغادرا المكان بعد أن فردت الفتاة مظلتها. قلَبَ يده اليسرى ينظر فى ساعته وقال : أنت ضيفى الليلة، حين اعتذرتُ حلف بالطلاق فأسقط فى يدى. دفع

الحساب وأعطى النادل ورقة مالية كبيرة انحنى لها هذا كالرقم ثمانية، نهض متعاظما وقال هيا بنا.

فى الطريق طلب من قائد سيارة الأجرة أن يتوقف عند متجر لبيع الحمام، خف إليه العامل الذى بدا أنه يعرفه طلب منه عشرة أزواج من «الزغاليل».. يذبحها وينظفها ويرسلها إلى بيته، فقال العامل : إنه خادمه. هبطنا من السيارة على ناصية شارع صغير شبه مظلم متفرع من شارع الكورنيش قال لى: إن زوجته وولديه سيفرحون بزيارتى. قال إنهم يسمعون اسمى يتردد كثيرا من خلال حكايته عنى، وعاتبنى على هذه القطيعة الطويلة، سرنا فى محاذاة سياج من الطوب الأحمر تشع منه الرطوبة ودلفنا من فتحة فيه تشبه الباب، وجدت نفسى أسير فى أرض فضاء انتشر فيها زرع وحشى فى جهامة الصبار، سرنا فى ممر مترب تناثرت فيه علب السردين الفارغة وحطام الزجاجات وأكوام القمامة، توقف أمام فوهة مظلمة لم أر شيئا بداخلها لكثافة الظلام، دخل وطلب منى أن أكون على حذر وأنا أهبط لأن

درجات السلَّم متآكلة، خرجت من الفوهة المظلمة ثلاث قطط مفزوعة ودخلت الزرع الوحشى شعرت بالخوف.. سمعته ينقر على زجاج باب أو نافذة لم أتبينها وقال إنه فكر كثيرا فى أن «يأمر» الكهربائى بوضع مصباح أمام الباب، لكنه ينسى.. الرطوبة حولنا خانقة والهواء راكد، فتح لنا الباب طفل فى السادسة قدمه على أنه ابنه الكبير (عادل).. وجدت نفسى فى حجرة واسعة تقسمها ستارة كثيفة. أشار إلى أريكة حائلة اللون وقال : اجلس، ثم اختفى وراء الستارة.. جلستُ على الأريكة فلم ارتح لها حين أنَّت تحتى مما اضطرنى إلى أن انتقل إلى الأريكة الوحيدة الباقية التى كانت أفضل قليلا.

حق الاعتراض

رفع رأسه يرقب الناموس يتراقص حول المصباح المدلَّى من السقف، يرتطم بالزجاج فى محاولات مستميتة لقتل نفسه، أدار عنقه حين فتح المكتب ودخل أحد أتباعه، فتى مهوش شعر الرأس، يضع كفه فوق عينيه اليسرى، بقعة من الدماء تلطخ صدر قميصه ..

– مالك ؟

– ضربونى.

– من ضربك ؟

أجاب وهو يتحسس عينه المتورمة :

– معلم كبير اسمه سالم القط.

– أى منطقة ؟

– كليوباترا الحمَّامات.

– هو عرف أنك من رجالى ؟

صمت للحظة قبل أن يجيب : قلت له : أنا من رجال

المعلم عزوز الواعر، قال لى: أبوك وأبوه !

تقلّصت جبهته حين توترت الخطوط الطولية أعلى جفنيه الثقيلين المشحونين بتجارب قاسية، فتح درج مكتبه وأخرج مسدساً صغيراً، أدار ساقيته ولما اطمأن إلى أنه محشو، غرسه فيما بين ساقه اليسرى وجوربه، ثم وقف بقامته المديدة وشد السترة الجلدية الأمريكية حول جسده المكتنز، وفزع الناموس حول المصباح حين اخترقت رأسه فضاءها، أشار إلى الباب المؤدى إلى الخارج: أرنى إيّاه.

عند مرورهما أمام مقهى الحى الشعبى، وقف بعض الجالسين على الرصيف، وضعوا أكفَّهم فى محاذاة آذانهم، تصايحوا :

– تفضل يا معلمنا الكبير..

رفع كفه إلى أعلى دون إجابة، تقدم منه رجل مفتول العضل، على وجهه وعنقه آثار طعنات، قال :

– فيه حاجة يا معلمى ؟

هز رأسه نافياً، أشار إلى سيارة أجرة، توقفت، جلس بجوار السائق ودلف ذو العين المتورّمة إلى المقعد الخلفى:

– كيلوباترا الحمّامات يا أسطى.

سياج الكورنيش يتراجع إلى الخلف، الأمواج العالية تواصل معركتها الأبدية مع صخور الشاطئ فيما بدت قلعة قايتباى وسط الأمواج كأنها تتحداها، وكان جهاز راديو السيارة يقول إن مندوبهم فى مجلس الأمن طالب بإلغاء حظر السلاح ليدافعوا عن أنفسهم فمالت أكثر الدول إلى إجابة مطلبه، لكن مندوب الدولة الكبرى هدَّد باستعمال حق الفيتو:

– إكسر يمين يا أسطى.

اجتازت السيارة الميدان العريض بحوانيته ذات الطابع الأوروبى، تعلوها لافتات بحروف لاتينية، أشار ذو العين المتورمة إلى ممر طويل متسع مسقوف، على جانبيه صفان من الحوانيت، وقال : هنا.

هبط المعلم عزوز الواعر والآخر يتقدمه يدلُّه على الطريق، تنتشر فى الجو رائحة الخضروات والسمك والبسطرمة، وتتصاعد أصوات البائعين والمشترين، وقف ذو العين المتورّمة أمام حانوت فارغ وبلا أبواب يتصدره

مكتب صغير تجلس خلفه فتاة نحيلة شاحبة الوجه لعينيها السوداوين نظرة حزينة، أشار إليها وقال: سكرتيرته.

سألها عزوز بصوته الأجشّ: المعلم سالم القط هنا ؟

أشارت بسبابتها إلى الداخل وهى تنظر إليه بتوجّس:

– فى مكتبه، لكن من حضرتك؟

لم يجبها، تقدم خطوات نحو باب عريض، فى نهاية الحانوت، تتوسطه لافتة مكتوب عليها: «مكتب إدارة شركة الأسواق التموينية الكبرى لصاحبها ومديرها سالم القط، «ملك الملوك إذا وهب لا تسألن عن السبب».

دفع الباب ليجد نفسه فى قاعة مستطيلة ذات جدران بيضاء عالية، فى نهايتها رجل ضخم الجثة له سمات المصارعين وملامح وجهه قسمات غليظة يتوسطها أنف كبير مجدور، يرتدى بدلة صفراء وعلى صدره يتدلى رباط عنق لامع الحمرة، يجلس إلى مكتب عريض، حوله مقاعد جلدية وثيرة، وأمامه صف من أقفاص البرتقال.

ارتفع حاجبًا ضخم الجثة وهو يتطلع إلى القادم، ثم

وقف فاردا ذراعيه وصاح بصوت يشي بالسرور:

- من ؟.. مرسى المالح ؟

تماوجت تعابير وجه المعلم عزوز الواعر بالدهشة وهو يهتف بصوت ممطوط: حميدو ؟

تعانق الرجلان بحرارة كأنهما فيلان يتصارعان، وتبادلا القبلات مع الكلمات الحارة بأصوات متهدِّجة :

- أنت هنا وأنا لا أعرف يا حرامى؟!

- يوم أبيض لأنى رأيتك يا ابن اللئيمة! أشار ضخم الجثة إلى مقعد جلدى: أقعد يا أعز الأحباب.

جلس المعلم عزوز، وقع بصره على ذى العين المتورمة يقف منكمشا على نفسه وفمه نصف مفتوح، قال له بجفاء وهو يشير إلىَ الباب: انتظرنى هناك.

خرج ذو العين المتورّمة متعثراً، قال ذو الجثة الضخمة وهو يلوى عنقه يتابع خروجه، من رجالك ؟

- نعم ..

- لم أكن أعرف وشرفك، قال لى : «أنا من رجال عزوز الواعر» منذ متى تحمل هذا الاسم يا نصاب ؟

– الاسم القديم سيعرضنى لمتاعب مع البوليس كما تعلم، غيرته بهذا الاسم بعد دفع مبلغ كبير.

ضحك ضخم الجثة وقال :

– الحال من بعضه، أنا أيضا غيَّرت الاسم من «حميدو الأبيض» إلى «سالم القط» بعد هروبنا من السجن معا بحوالى سنة ..

– الولد قال لى ضربنى رجل اسمه «سالم القط»، قلت له إما أن يعتذر بتقبيل رأسك حالا مع دفع غرامة محترمة، أو نبعث به إلى المقابر فى ظرف يومين، سلامات؟

– الله يسلمك، لو كنت أعرف أنه من رجالك، كنت تصرفت بطريقة أخرى، لكن طمئنِّى على أخبارك؟

– كل شئ تمام، أكسب فى اليوم حوالى ثلاثة آلاف جنيه، وأنت ؟

– مبلغ قريب من هذا، بنيتُ هذا السوق بعد هجرى للعاصمة مباشرة، فيه دكاكين تبيع كل الأنواع، لحوم وبقالة وسمك وبط ودجاج وفاكهة وخضروات وألبان،

نحمد الله على كل حال.

- كيف عثرتَ على الأرض وسط هذا الحى الراقى ؟

- صاحبها إيطالى عاد إلى بلاده، له وكيل محامى هنا، رفع قضية ضدى، قال للمحكمة إننى اغتصبتها لكننى هدَّدته فتصالحنا على مبلغ معقول، وأنت ؟

- أتاجر فى بضائع تأتى من الخارج بدون رسوم جمارك، كل رجال الميناء أحبابى، ورئيسهم يعمل لى ألف حساب، لكن أنت أخذت أكثر من نصيبك فى الفلوس يا حميدو.

- أبدا وشرفك حينما نبشت الحفرة بعد هروبنا من السجن، وجدت أوراق البنكنوت كلها تلفت، الدهب وحده ظل كما هو، اسمع أنت ضيفى الليلة، إياك تعترض.

وكان ذو العين المتورّمة يبدو عليه الإرهاق وهو يجلس منتظرا فى الخارج بجوار الفتاة الشاحبة التى كانت تشكو له بقولها :

- طلبت منه إجازة أزور أمى المريضة فى المستشفى، لكنه رفض.

المدينة الكبيرة

لاحظت أن مدير المطعم يستقبله بحفاوة.. يحجز له أجمل الموائد وأقربها إلى الحديقة.. العُمال يتسابقون إلى خدمته.. وجهه غريب عن الحيّ.. تكررت رؤيتى له فى المطعم الذى اعتدت تناول وجبة الغداء فيه.. أسرتى رحلتْ إلى المصيف واضطرنى العمل للبقاء فى العاصمة.

ذات يوم قال مدير المطعم وهو يشير إليه :

- شوكت بك، من رجال الأعمال.

ثم قدمنى إليه بصفتى مدير حسابات البنك التجارى.

ابتسم فى وجهى وقال : يبدو أنك مَنْ أبحث عنه.

- خيراً إن شاء الله ؟

- استعد لإقامة مشروع جديد، أحتاج إلى مَنْ أثق به ليتولى حساباته.

لاحظت أنه ينفق عن سعة.. سيارته من النوع الذى يقتنيه عليةُ القوم.. من مدينة ساحلية وقرر نقل نشاطه

إلى العاصمة.. تحدث كثيرا عن مشروعه.. قضينا أسابيع في دراسته. أشركنا معنا أحد زملائي المتخصِّصين.. قال له الزميل :

– يحتاج إلى مائة مليون على الأقل.

هزّ رأسه وقال: لا بأس، وهو نفس تقديري تقريبا اكتسب شعبية سريعة في الحي.. بالذات من أصحاب الحوانيت والمقاصف.. يخرج من جيبه مبلغا كبيرا يعطيه لصاحب الحانوت :

– وزّعه على عمالك بالعدل يا عم فلان.

في حدود الأربعين .. متوسط الطول، معتدل القامة، له وجه، وديع جاد يوحي بالثقة.. ألوان ملابسه وطريقة تفصيلها تنم عن ذوق رفيع.

تعددت لقاءاتنا.. وكنا في بهو فندق شهير حين سألني:

– لماذا لا تستقيل ؟

– أستقيل ؟

– المشروع يحتاج إلى تفرُّغ وأنا مشغول.. اعتبر

نفسك شريكاً.. ستكون لك نسبة عالية فى الأرباح نظير الإدارة .

– لى أكثر من ثلاثين عاماً فى البنك.. كيف أضحى بكل هذه المدّة ؟

– دعك من هذا التفكير التقليدى.. ما نسبة مرتبك إزاء مشروع مثل هذا.. واحد على الألف ؟!

– لكن ..

– فكّر فى الأمر ولك عندى كل ما يطمئنك.. رشح المحامى الذى تراه لكتابة العقد، وضعْ لنفسك كل ما تحب من ضمانات.وأنا أتعجب والله.. كيف لرجل مثلك يملك كل هذه الخبرات الإقتصادية، ويكتفى بمثل هذه الوظيفة؟

***

فاجأتُ أفراد أسرتى فى المصيف قُبَيْل منتصف الليل.. كانوا يجلسون فى شرفة عريضة تطل على البحر.. قالت زوجتى:

– إقبل يا عبد السلام.. يبدو أن الحظ سيبتسم لنا.

وقالت إبنتى : لا تغامر يا أبى.. لم يبق أمامى غير

سنة فى الجامعة، ومثل هذه المغامرة قد تؤثر على تحصيلى، ثم أن ....

قاطعتها زوجتى: لا تسمع كلام كاميليا ..

أدخل فى المشروع، نحن فى حاجة إلى أن نتمتع بالدنيا.. أنظر إلى أختى التى يعمل زوجها فى التصدير.. تعيش كأنها ملِكَة.

وقال إبنى مبتهجاً: مستعد لمعاونتك فى الأجازات الدراسية يا بابا.. ثم أننى أحلم برحلة إلى أوروبا أرى فيها العالم .

***

استشرت مدير البنك والكثير من الزملاء فانقسموا ما بين مشجع ومعارض ..

قضيت أسبوعا، بعد عودتى من زيارة الأسرة، أستشير كل من أتوقع منه رأيا صائباً.. تساوت أصوات الموافقين بأصوات المحذرين ..

حلمتُ ذات ليلة بأنه قد نَبَتَ لى جناحان، وباستطاعتى دخول أى دولة بدون جواز سفر فتفاءلت.. وفى ليلة أخرى

حلمتُ برجال الإنقاذ يبذلون مجهوداً شاقّاً لإخراجى من تحت أنقاض العمارة التى دمّرها زلزال، فتشاءمت!

ذهبت مع شوكت بك لزيارة مالك الڤيللا المعروضة للبيع.. استقبلنا الرجل فى صالون بيته وعرض عليه شوكت بك مليون جنيه، لكنه طلب مليونا ونصف..

ابتسم وقال له : إذا جاءك مبلغ أكبر فبعها، لكن إذا توقف العرض عند المليون، فأنا أوْلى..

ونحن نهبط درجات السلم قال لى: البنسيون الذى أقيم فيه لا يصلح لاستقبال العملاء.. لو وافق هذا الرجل على بيع الڤيللا، تكون سكناً ممتازاً. قدمت استقالتى فقال لى مدير البنك :

- هذا خطأ ..

- ليكن .. سأجرب حظى فى المغامرة .

***

قضينا معا أكثر من أربع ساعات فى معاينة الأرض التى سيقام عليها المشروع.. خطر لى، فى طريق العودة، أن أزور شقيقى الأصغر.. اتجه بالسيارة إلى إحدى

الضـواحى نصف الشـعـبـيـة، ثم توقف فـجـأة فى أحـد الشوارع الصغيرة وقال :

- بعد إذنك أشترى علبة سجائر.

خرج من السيارة وخطا فى اتجاه حانوت.. بدأ المطر يتساقط فى رذاذ خفيف.

من الخلف جاءت امرأة ضـخـمـة الجـثـة، فى حـدود الخمسين، ذات طابع شعبى وقامة أطول من المألوف..

توقـفت أمـام الحـانوت وحـدقت فى جـانب وجـهـه.. أمسكت بكتفيه وأدارته بحيث يواجهها:

- شوكت؟ .. أنت هنا ؟

بدا عليـه الإرتبـاك.. تراجع بظـهـره إلى الوراء، لكن المرأة مدّت كفها العريضة وجذبته إليها فتعثر لولا أن أمسكت بعنقه ورفعته قليلا بذراعها، كأنها ذراع رافعة، حتى صارت قدماه أعلى من الأرض بمقدار نصف شبر وهى تقول :

- وقعت فى يدى يا ابن الأبالسة!

أنزلته فلامست قدماه الأرض، وقال وهو يشهق كما

يفعل الغريق حين يظهر رأسه على وجه الماء:

- نتفاهم بالذوق أحسن!

لفّت رباط عنقه على كفها فانتفخ وجهه وبرز لسانه وصدرت عنه أصوات حلقيّة غير مفهومة..

وجدتنى أغادر السيارة مهرولاً وأمسك بقبضة المرأة فى محاولة لفكّها عن عنقه.. دفعتنى بذراعها الأخرى وهى تقول :

- أنت شريكه يالص؟!

تقهقرتُ لشدة الدفعة، فارتطم ظهرى بالسيارة.. خرج صاحب الحانوت إلى الرصيف وصاح بلهجة من ينهرها:

- اطلقى الرجل يا امرأة وإلا مات فى يدك.

قال ذلك وهو على مبعدة ..

تجمع بعض الصغار وصفقوا لها وهم يهتفون :

- تحيا البطلة !

أطلقته وعدّلت من وضع الملاءة السوداء على جسدها وهو واقف أمامها دون حركة.. بدا منظره مثل عصفور بلّله الماء وعجز عن الطيران ..

أمسكت بمعصمه وهى تقول :

– تظن أنك تفلت من يدى يا ابن أمينة ضُرغام؟!

تجمع أصحاب الحوانيت وبعض السابلة يشاهدون ما يحدث دون أن يتدخّل أحد، والصغار مازالوا يهتفون.

خطت به فى اتجاه الرصيف المقابل فسار معها مستسلماً كأنه طفل يتعثر بجوار أمه وقالت له :

– قلبى كان يحدّثنى بأننى سأعثر عليك.

جاء أحد جنود الشرطة، وقف على مبعدة وصاح وهو يدق الأرض بحذائه الثقيل:

– ما الذى يحدث هنا ؟

قالت له بلهجة آمرة :

– خُذنا إلى القسم يا شاويش.

ساروا ثلاثتهم فى اتجاه قسم الشرطة..

لست أدرى كم مرّ من الوقت قبل أن أفيق إلى نفسى.. كـــان المطر قـــد ازداد دون أن أحس به.. نظرت إلى ملابسى فرأيت بقعة سوداء عريضة على صدر القميص.. أوقفت سيارة أجرة وألقيت بنفسى داخلها..

سلال الجريد

عربة القطار شبه خالية. ضابط شرطة برتبة عقيد يجلس فى منتصفها، على مقربة منه مجموعة من السياح الأوروبيين.. بحثتُ عن رقم مقعدى وسعدتُ إذ كان بجوار النافذة ..

صعد فتى وفتاة.. وضعا حقيبتيهما على الرفّ وجلسا فى المقعدين المواجهين.. الفتاة فى حدود العشرين. رشيقة القوام، عليها ثوب طويل أبيض منقوش بدوائر صغيرة داكنة الزرقة، فوقه معطف ذو لون كحلى غامق، على رأسها خمار أبيض، فى منتصف ذقنها فجوة صغيرة أعطتها جاذبية.. جلست قبالتى وهى تنظر إلى النافذة..

الشاب فى مثل عمرها تقريباً، ممتلئ قليلا، يرتدى بدلة زرقاء ورباط عنق داكن الحمرة، هز رأسه لى مبتسما وجلس بجوارها.

خمنت أنهما من نفس المحافظة، وربما كانا متزوجين حديثاً. وسائل التدفئة الحديثة أضفت على العربة جوّا من الأمان، قياسا إلى البرودة الشديدة فى الخارج، شمس الصعيد بدت أمامها مهيضة الجناح..

تحرك القطار وكان لابد من فتح باب الحديث، قلت: «الجو بارد اليوم» قال الفتى: «منذ يومين وهو على هذه الحال» قالت الفتاة: «نحن فى شهر فبراير»..

فى صوتها براءة محببة، مثل صوت ابنتى «وداد» وهى فى مثل عمرها تقريبا..

سألت الفتى: «القاهرة؟» أجاب: «إن شاء الله» قلت: «وأنا أيضا، سنمكث معا أربع عشرة ساعة.»

من النافذة العريضة يتراءى النيل فى جلاله.. الشريط الأخضر على جانبيه، يبدو ضئيلا فى هذه المنطقة من البلاد، قال الفتى: «نحن رأينا سيادتك فى التليفزيون» قلت: «الفضل يعود إلى المهرجان الأدبى الذى دعتنى إليه عاصمة المحافظة» قالت الفتاة: «حاولنا شهوده، لكن الوقت لم يسعفنا، وقصيدة حضرتك كانت رائعة.»

سعدت ودهشت.. فمنذ امتلأت السماء بالفضائيات، هجر الناس الشعر فأصبحنا، نحن أدباء الدول النامية، نكتفى بالقراءة لبعضنا البعض..

المراكب الشراعية تبدو كالأوزة الكبيرة على صفحة النيل، المزارعون يروحون ويجيئون فى الحقول، فؤوس ترتفع وأخرى تنخفض، أبقار تتناثر هنا وهناك غير مبالية بما يحدث فى العالم..

قال الفتى : «نحن عرفناك بمجرد أن رأينا الكاميرا تركز عليك، حتى قبل أن يعلن مُقدِّم الحفل عن اسمك» قلت: «أتحبان الشعر؟» أشار إليها وقال: «هى التى جرَّتنى إليه» ابتسمت الفتاة، قالت: «الحياة تصبح كالصحراء القاحلة لو خلت من الفنون الرفيعة، بالذات الشعر»

بارك الله فيك يا ابنتى، ثمة أناس لا يتذوقون الفنون بحجة أن عقلياتهم «علمية» دون أن يعوا بأنهم غليظو الإحساس.

قال الفتى : كل دواوين الشعراء بجوار سريرها،

تحـفظ أمل دنقل عن ظهـر قلب» قلت: «يرحـمـه الله» تساءلت: «هل كنت تعرفه يا أستاذ؟» قلت: «كان صديقى» قالت: «هل حقا ما يشاع عنه، لم يكن يمكث فى أى عمل ولا يقيم وزناً لشىء؟» قلت: «كان يضيق بالقيود الوظيفية، لكن من قال إنه لا يقيم وزنا لشىء؟»..

جاء عامل المقصف، طلبت الفتاة عصير برتقال، وطلب الفتى شايا، وطلبت قهوة بسكر خفيف..

فى الخارج ثمة جِمال تحمل تلالاً من البرسيم، وحمير تتحرك براكبيها، هذا عالم هادئ فى ظاهره، مضت عليه عشرات القرون وهو غارق فى صمته، لكن ماذا يدور فى داخل قاطنيه؟

فتح الفتى حقيبة صغيرة وأخرج منها جهاز راديو صـغـيـراً، جاءنا صـوت يحلل الأحـداث فى البـوسنة والهرسك، أنصتنا للتحليل، قلت: «هذه من أبشع الحروب» قال الفتى : أهل البوسنة ليسوا من الأتراك الغزاة كما يزعمون، لكنهم من السلافيين، العنصر نفسه الذى ينتمى إليـه الصـرب والكروات» قـالت الفتـاة : «أوروبا تتـهمنا

بالتعصب فى حين قضت على كل الأقليات الدينية والعرقية فيها»

جاء عامل المقصف، نصب مائدة صغيرة بيننا بعد أن شبكها فى المقاعد، ووضع عليها المشروبات. قال الفتى: «الحمد لله لأننا، نحن العرب، نعيش بجوار بعضنا، وإلا لحدث لنا ما حدث للأقليات فى أوروبا.»

توقف القطار ودخل راكب جديد.. رجل ضخم الجثة فى حدود الأربعين، يرتدى بدلة حمراء، يتدلى على صدره رباط عنق أصفر، دخل وراءه عدد من الرجال عليهم جلابيب رثّة، يحملون سلالاً من الجريد، ظهرت من فتحاتها قطع الذبائح.. وضعوها على الرفوف فبدا منظرها بشعاً بجوار الحقائب الأنيقة..

ظهرت الدهشة على وجه الفتاة، فى حين مضى الفتى يحاول مداراة ابتسامته، واشرأب السياح بأعناقهم يحدقون فى الرفوف بدهشة، وكان ضابط الشرطة فى إغفاءة وقد مال رأسه على صدره..

صاح الرجل الضخم فى ذوى الثياب الرثّة: اخرجوا،

فتزاحموا للخروج، ألقى نظرة على الرفوف وقال: «عال» ثم خرج وراءهم..

رأيناه من خلال زجاج النافذة يلوح بيديه كأنه يصدر إليهم الأوامر، وجاء عامل المقصف، أخذ الأكواب الفارغة، وخلع المائدة، ثم وقف يتأمل السلال بذبائحها على الرفوف ويمصمص شفتيه، قال كالمخاطب نفسه: «هذه الأشياء ممنوعة هنا.» ثم هزّ كتفيه ومضى..

عاد الرجل الضخم ووقف قبالتنا، أخرج تذكرته ونظر فيها وأشار إلى مقعد الفتاة وخاطبها: «مكانى هنا يا عسل!». وقفت مرتبكة.. انتقلت إلى المقعد المجاور لى والمواجه للفتى.. أخرج الشاب التذاكر من جيبه ونظر فيها ثم خاطب الرجل الضخم: «هى كانت تجلس فى مقعدها، رقمها سبعة عشر.» قال الرجل الضخم بعد أن جلس فى المقعد الذى تركته الفتاة: «وأنا رقمى سبعة عشر.» ثم وضع ساقاً على ساق، وأدار عنقه تجاه النافذة، ومضى يعطى إشارات للرجال ذوى الثياب الرثّة، كأنه يأمرها بالقيام بأعمال معينة.. كانوا يقفون فى صف

ويحنون رؤوسهم بعد كل إشارة يصدرها..

تسمم جو الجلسة فلزمنا الصمت.. تحرك القطار فانزاح صف ذوى الثياب الرثّة إلى الوراء مثل كائنات بدائية نسيها التاريخ.. قال الرجل الضخم وهو يشير إلى النافذة: «هولاء الأجراء يكلفوننى، مع زملائهم، ألف جنيه فى اليوم!»

لم يبدُ على الفتى ما يدل على أنه سمع شيئا.. وضع ساقه اليمنى فوق اليسرى واتكأ إلى الوراء بعد أن أغمض عينيه.. فتحت الفتاة حقيبة يدها وأخرجت كتاباً فى حجم الكف وغابت عنَّا بين دفتيه..

قلت للرجل الضخم، محاولا تبديد ماران على الجلسة من بؤس: «واضح أنك من رجال الأعمال؟» أجاب بصوت أجشّ وبلهجة تشى بالفَخَار: «طبعا.. وأنا الآن أجلس مع الكُبراء!» ثم رسم بذراعه نصف دائرة فى الهواء: «أنا لا أركب هذه القطارات، شركة الطيران قالت لى انتظر يومين، وأنا عندى مواعيد، وسائق سيارتى المرسيدس، مريض!»

ثم مـال بجـذعـه إلى الأمـام وحـدّق فى وجـهى بـعـينين جاحظتين قائلا : «نعم؟!»

فتح الفتى عينيه ثم أنزل ساقه اليمنى ووضع فوقها اليسرى وتنهد وعاد يغمض عينيه..

تراجع الضخم بجسده إلى الوراء بعد أن رمق الفتى باستياء، ثم مال إلى الأمام بحركة سريعة مفاجئة، مدّ يده إلى الأسفل، سحب حقيبة يدّ من تحت المقعد، وضعها على ركبتيه وفتحها، أخرج منها رزمة ضخمة من الدولارات وانهمك فى إحصائها ببراعة الصيارفة..

رفعت الفتاة رأسها عن الكتاب وسألت الفتى : «هى كلمة «شوف» عربية؟» .. ثم أومأت برأسها إلى الكتاب وأردفت : «الكاتب هنا يقول (على مدى الشوف) هل هى عربيه؟» قال الفتى : «لا أعرف، ربما كانت عربية» ثم سألنى: «هى عربية يا أستاذ؟».. تدخل الرجل الضخم، بعد أن توقف عن الإحصاء، وقال بلهجة احتجاج: «فرنساوية يعنى؟.. أى واحد شاف حاجة يقول أنا «شفتها!»..

تجاهله الفتى وعاد يسألنى: «عربية يا أستاذ؟» قبل أن أفتح فمى سألنى الضخم: «ما شغلتك يا باشا؟!».. ظهر الانزعاج على وجه الفتى وانفرجت شفتا الفتاة وهى تنقل بصرها بيننا، وقال الفتى مشيرا إلىَّ، مخاطبا الضخم بلهجة مستاءة : «الأستاذ الشاعر المعروف عبد السلام العقباوى» بدت الدهشة على وجه الرجل الضخم، رفع حاجبيه الكثيفين وسألنى: «تكسب فلوساً كثيرة من هذه الشُّغلانة؟!»

لست أدرى لماذا وجدت نفسى أضحك.. دهش الفتى فى البداية ثم شاركنى الضحك، فقال الضخم كالمعتذر: «أصل الحكاية أن ابن عمى يقول إنه شاعر، ولا يكسب من هذه الشغلانة مالاً!»

حين رأى ضحكنا يزداد، أطلق ضحكة بدائية لفتت نظر السياح وأفاق لها ضابط الشرطة من غفوته.

وقفت الفتاة وخطت نحو المقاعد المجاورة، جلست على إحداها وقالت للفتى: «تعال نجلس هنا مادامت شاغرة.» وقف الفتى وقال لى: «تعال يا أستاذ» وأشار إلى المقعد

المجاور للنافذة.

تجهم الرجل الضخم، انتهى من إحصاء رُزمة الدولارات، وضعها فى الحقيبة وأخرج رُزمة مماثلة من الجنيهات الاسترلينية، مضى يحصيها، وكانت الحقول قد اختفت فى الخارج بعد أن غابت الشمس وحجز بيننا الظلام.

الأشواك البَرِّيَّة

خـرجت الجنازة من الجـامـع الكبـيـر فـى الضُّـحى..
وراءها سار رجال العائلة يتقدمهم الأخوة والأولاد..النساء
فى الخلفيـة تحلَّلن من الوقـار، صـراخـهن يتـصـاعـد في
مـوجـات.. من وسط الجـمـاهيـر تتـردد الاسـتـرجـاعـات
والحوْقلات، قال إمام المسجد:

– مات أعدلُ عمدة حكم بلدنا ..

ابنة العمدة الكبرى (شاكرية) تحزَّمت بأكمام قفطانه
الشَّاهى وتركت بقيته ينسدل حول نصفها الأسفل، تتوكأ
على بندقيتـه الأمـريكية الصنع، على رأسـهـا كـومـة من
الطين، تُردد الشِّعر الحزين الذى قالته عزيزة بنت معبد –
سلطان تونس – يوم استشهاد أبيها:

شـــــاكــــــريّه تـنـادى المغَـــــسِّـل..
هـات لـيـــــفْــــتَك والـصـــــابـونـه..
أبـونـا مـن الـصـــــلا مـــــا بـكَـسِّـل ..

يـادِلِّــنـا بــعــــــــــــــد ابـونــا.

بجوارها تسير ابنتها الأستاذة كاميليا المحامية، انسدل عليها ثوب أسود فضفاض، على رأسها طرحة من نفس اللون، تبكى فى صمت، احمرَّت عيناها الواسعتان ذات الأهداب الطويلة وصل النعش إلى نجع الكيمان، وجد فى انتظاره عشرات الرجال يتقدمهم زعيم النجع الشيخ كامل المحارب بشاربه الأبيض المعقوف، ساروا خلفه يرفعون أكمامهم العريضة يمسحون دموعهم، قال زعيم الكيمان بصوت مخنوق:

– كان يعطى كل إنسان حقه مهما كان وضعه.

صعدت الجنازة قنطرة آل مسعود، عبرت الترعة خرج بضعة رجال من الحقول المجاورة وشفاههم تتحرك، قال أحدهم بصوت خالطه البكاء:

– من لنا بعدك يا عمدة العُمَد؟

اقترب النعش من نجع السِّبيعية، رفع الحاج عبدالودود كبير أسرة العمدة الراحل ذراعه:

– قولوا للنسوان ترجع.

أسرع حوالى عشرين شخصا، صنعوا من أنفسهم سداً طويلا أغلق الطريق، صاح إمام المسجد يخاطب النساء:

- البكاء حرام.. الميت يتعذب فى قبره بسببه.. ارجعن بارك الله فيكن.

حاولت بعض نساء الأسرة اختراق السد، لكن أحد الرجال صاح بلهجة غاضبة: لا تجبرننا على الغلط.

توقفت النساء وهن يولولن ويرددن الأشعار الحزينة فى حين شقَّت الجنازة النجع، عند نهايته تردد صوت امرأة تبكى داخل أحد البيوت:

- كان يعطف عليَّ وعلى أولادى اليتامى، أين أذهب بهم الآن ؟

دخل النعش حقول عرب العليقات، ثمة بقرة فى مراحها، أدارت عنقها تنظر إلى النعش، وذيلها يضرب ظهرها فى تراخٍ.. قُبيل وادى المناصير ظهر جمع من الناس ينتظر وصول الجنازة يتقدمهم العمدة بسطاوى الخليلى بعباءته السوداء ولحيته المخضبة بالحنَّاء، رفع يده

وقال باكيا:

– ما معنى الحياة بعدك يا خُوى ؟

صعد النعش تل الرمال البيضاء، انغرست الأقدام فى الرمال الناعمة، أبطأت الجنازة فى سيرها، ثمَّة صبيان توقفوا عن اللعب، يمدون أعناقهم النحيلة، يحدِّقون فى الجموع الغفيرة بدهشة.. هبط النعش إلى الناحية الأخرى ودخل نجع الحواتك، كان جمعا من الناس يقترب من مقدمتها، على رأسهم الأستاذ عبد الحليم الديب رئيس مجلس القرية، يتدلى على صدره رباط عنق أسود، قال وهو يضع منديله الأبيض على فمه:

– اليوم انهدم ركن من أركان الخير فى المحافظة.

دخل النعش حوض الجعافرة.. من بعيد كان رتل من السيارات يقترب تتقدمه سيارة مرسيدس يرفرف عليها علم البلاد، سرت همهمات فى الصفوف الخلفية: «سعادة الباشا المحافظ.. سعادة الباشا المحافظ».. توقفت السيارات، خرج المحافظ بقامته العسكرية، خرج معه حوالى عشرون رجلاً من كبار موظفى المحافظة، عدَّل

المشيعون من وضعهم بحيث توسّط المحافظ أولاد الفقيد وأخوته فى الصف الأول، سار الجمع الغفير وراءهم فى خطوات حزينة.

عند حقول الحمّاديّة، لوح رجل بيده يطلب من الجنازة أن تغير مسارها.. جسر الترعة منهدم والمياه أغرقت الطريق الرئيسى والحقول.. قال كبير عائلة العمدة الحاج عبد الودود للمحافظ:

– تفضل إلى سيارتك يا سعادة الباشا..

ثم التفت إلى شخص خلفه: اذهب معهم يا شيخ محمود إلى المضيفة. عاد المحافظ وكبار الموظفين إلى سياراتهم وتحركوا فى الاتجاه المضاد.. انحرفت الجنازة إلى أقصى اليمين، مقتحمة العاقول والأشواك البريّة، بعد أن رفع المشيعون أطراف ثيابهم خوفا من تمزيقها، دخل النعش درب آل عبد الإله الطويل، تقاطر الناس خلفها فى طابور طويل رفيع لضيق الدرب، طار الحمام مذعوراً من فوق الجدران، قبل أن تصل الجنازة إلى نهاية الدرب، اعترضت طريقها امرأة شابة، واضحة الملاحَة، وقفت

أمـام النعش فـاردة ذراعـيـهـا، بدا منظرها، بثـيـابـهـا الفضفاضة السوداء، كالصليب، وولّت :

– يا أهل البلد، أنا حُبْلى.

توقف النَّعش، سقط البعض لتزاحُم الناس فى الخلفية كلٌ يريد أن يرى صاحبة الصوت.

– ابعدى يا امرأة من الطريق

– لن أبعد.. اقتلونى أو اثبتوا أن ما فى بطنى هو ابن المرحوم.

همس رجل من نجع الحواتك لجاره: لو لم تكن امرأة لقتلها أبناء العمدة.

– صـدَقْت، ولو كـانت نسـاء العـائلة وصلت إلى هـنا، لفتَكْن بها..

– لكن من هى ؟

– بنت المرأة الغريبة المسماة سليمة الرفاعية.

– هل تصدق ؟

– الله أعلم.

اقتربت الشابة من الجموع، وجنتاها ناعمتان كوجنتى

صبية فى العاشرة، مدت يدها لتمسك بالنعش، دفعها رجل ممن فى المقدمة: ابعدى يدك.

– لن أبعد، اثبتوا حقى أو أموت.

ظهرت وراءها امرأة فى حدود السبعين تلتف فى عباءة مهترئة وتتوكأ على عكاز من جريد النخل، قالت بصوت وشَى بكبر سنِّها: بنتى لم تكذب، المرحوم كان يزورها ولا نقدر على الكلام.

صاح كبير أسرة العمدة الحاج عبد الودود: يا شيخ خليفة، أنت كبير هذا النجع فتصرَّف لنا فى الموضوع.

تقدم رجل قصير القامة، يبدو أنيقا فى ثيابه، سار بصعوبة لضيق الدرب وتزاحُم الناس، حين وصل إلى المقدمة صاح بلهجة من اعتاد إصدار الأوامر: أنا مستعد أثبت لك حقك إن كان لك أى حق، لكن افسحى الطريق فللموت حرمته.

قالت الشابة بصوت مرهق مبحوح وهى تضع كفها فوق رأسها: اشهدوا يا أهل البلد.. الشيخ خليفة قال سأثبت لها حقها.

ثم أفسحت الطريق للنَّعش الذى تحرك فى صمت لا يسمع فيه غير وقع الخطوات، وفى الخلفية تطَّوح ابن العمدة الأكبر - عبد الحفيظ - أمسكوا به من تحت إبطيه، أجلسوه على عتبة أحد البيوت، كان يلهث بصوت مسموع، ضرب أحدهم الباب المغلق بكفّه ضربات متلاحقة: الحقونا بكوز ماء يا أهل الدار.

وكان النعش قد خرج من الدرب وغاب عن أنظارهم بعد أن خلَّف وراءه موجة من الغبار حجبت الرؤية.

الثوب الفاخر

رحَّبت بها أمى. فرشت لها سجادة صغيرة فوق حصيرة السَّعَف زيادة فى التكريم. كانت تتكئ بيد على كتف حفيدتها «ست الناس» وباليد الأخرى على عكازة ذات مقبض عاجىّ. ثقل جسد الحاجة فاطمة فلم تعد تستطيع الحركة بسهولة. ساعدتها أمى بوضع يدها تحت إبطها إلى أن جلست بصعوبة. مضت لحظات قبل أن يهدأ لهاثها. تربّعت حفيدتها بجوارها فى أدب جمّ دون أن يطرق لها جفن. بدا وقارها غريبا على صبية فى مثل عمرها.

قالت أمى مرحِّبة :

– أهلا يا بنت الكُبارات.

– أهلا يا حليمة

– لو كنت أعرف بزيارتك مقدّما، كنا رشّينا الطريق بالماء من هنا لغاية نجعكم.

– كثَّر الله خيرك يا بنت المرحوم.

– كل سكان نجعنا عرفوا الآن أنك شرفتينى بزيارتك.

– أنا لا أزور كل الناس.

– أنا عارفة.

ترتدى ثوبا فاخراً من الحرير الأسود الذى ترتدى مثله نساء أعيان البلد، لكنه قديم.

– قالت أمى لن أقدم الشاى قبل أن نتناول لقمة.

– أنا أكلت، هاتى الشاى.

– كُلى لقمة أو لقمتين، البنت الكبيرة، (سعدية) تجهز طعام الغداء.

– أكلت حـالا أنا وهذه البنيّـة، فطائر قـمح باللبن والسمن وعسل النحل.

قالت لى أمى: هاتى الشاى يا بنت.

دخلت حجرة الموقد، قلت لأختى سعدية: الحاجة فاطمة رفضت الطعام.

– لماذا ؟

– لا أدرى، هاتى الشاى.

قالت سعدية بلهجة فخر : الحاجة فاطمة لا تزور إلا العائلات ذات الحسب والنسب.. بالذات العائلات الوارثة، فدان أرض فما فوق.

وضعت سعدية الصينية فوق طبق من الخوص الملون، رصَّت فوقها الأكواب، بعد أن بخرتها بالصندل، ورفعتها لى.

صبَّت أمى كوباً مدَّته إلى الحاجة فاطمة التى أعادته إلى الصينية بعد أن تناولت منه رشفة، لكن حفيدتها لم تقرب كوبها.

- أهلا يا بنت الكبارات.

- أهلا يا حليمة.

سمعنا طشيش «التقلية» آتياً من حجرة الموقد، أشارت أمى إلى الحفيدة: أهى التى تقيم معك ؟

- نعم، منذ وفاة المرحومة أمها وهى معى.

- كم عمرها ؟

- مولودة فى السنة التى تهدّمت فيها مضيفتنا الكبيرة عَدَّت أمى على أصابع يديها :

- مضيفتكم الكبيرة تهدّمت منذ عشر رمضانات.

- أى نعم، عشر رمضانات.

- أسميتموها «ستّ الناس» على اسم المرحومة أختك؟

- الله يرحمها ويبلل الطوبة التى تحت رأسها، كانت أجمل بنات زمانها.

- الناس فى البلد مازالوا يتحدثون حتى الآن عن ليلة عُرسها.

لمعت عينا الحاجة فاطمة، هزّت رأسها الكبيرة.

- أبى ذبح يومها للمعازيم أربعة عجول وثلاثة وعشرين خروفاً، وطحن خمسة أرادب من غلّة القمح النظيفة.

- معلوم، العريس كان كبيراً ابن كبارات، جاءت معه معازيم من سبع بلاد، أنا فاكراها تلك الليلة.

دبّت الحماسة فى صوت الحاجة فاطمة.

- ركائب المعازيم وحدها أكلت أردبين شعير.

شاب الأسى صوت أمى:

- يا سلام على أيام زمان.. أين هى الآن ؟

رانَ الصمت.

الحمامة البيضاء التى نسميها أنا وأختى سعدية على اسم جارتنا «سليمة» التى لا تكفّ عن العمل ليل نهار، تحمل فى منقارها قشة فى طريقها إلى كُنّها فى البرج الصغير.

تنحنحت الحاجة فاطمة، أومأت بذقنها تجاهى:

– بنتك ؟

– خديجة.

– ما شاء الله، مخطوبة؟

– ابن عمها تكلم عليها من شهرين.

– ربنا يتمم بخير، هل ذهبت إلى المدارس ؟

– أبوها أخرجها من السنة الرابعة.

تنهّدت الحاجة وغمغمت:

– الدنيا تغيرت الآن، بنت أجيرنا السابق أصبحت محامية، يقولون لها يا أستاذة.

– وإيش يعنى ؟ المهم الأصل.

– لا اسمع منها إلا ما يعكّر دمى.

- إياك أن تردى على أمثالها.

- كان أبوها فى حقلنا بالنهار، ويربط ركائب ضيوفنا فى الليل.

- وماذا تغيَّر فيه الآن ؟ إنه كما هو رغم الثوب النظيف.

- ابنته مناخيرها فى السماء، كلما التقت بى فى فرح أو فى مأتم، أدارت وجهها إلى الناحية الأخرى.

- لكنك سيدتها وسيدة أبيها، برّ مصر كله يعرف ذلك.

- ذات مرة أشارت ناحيتى وقالت ما فائدة الأربعين فدّانا إذا اقتسمها عشرة أولاد وتسع بنات وأربع زوجات؟

- قطع لسانها.

- قالت : الأولاد باعوا ميراثهم وهاجروا إلى المدن الكبيرة لأنهم لا مقدرة لهم على العمل فى الأرض والبنات جاهلات تزوَّجن مجموعة من الطامعين.

- اشربى الشاى.

تناولت الكوب ورشفت منه وقالت أمى للحفيدة:

- اشربى يا ستّ الناس.

لم تقرب الحفيدة كوبها. قالت متشكّية : جوعانه.

هوت على وجه حفيدتها بكفها، مالت الصغيرة حتى لاصَق وجهها السجادة، ثم عادت إلى جلستها الاولى دون أن يبدو عليها - لدهشتنا - أى اضطراب غير علامات الأصابع فى الخدّ. ولمحت حين رفعَت الحاجة فاطمة يدها إلى أعلى، رقعة صغيرة لا تكاد ترى تحت إبط الثوب الفاخر.

ظهر ذكر الحمام المرقّش الذى نسميه «زوج سليمة» يحمل فى منقاره قشّة فى طريقه إلى عشه.

أعراف

كان الوقت قبيل الأصيل حين دخل عليه ولده الصغير وقال :

– رجل غريب يريدك فى الخارج يا أبى.

تناول «عبد الستار» ثوبه الأسود، ووضعه على كتفه وخرج يتبعه ولده الصغير.

فى الساحة، أمام البيوت، وجد رجلاً طويلاً عليه ثوب أسود من قماش غالى الثمن، على رأسه عمامة كبيرة من نسيج رقيق، فى يده عصا معقوفة، من مظهره أحس بأنه من ذوى المكانة، تقدم منه وهو يقول : أهلاً وسهلاً.

– عدم المؤاخذة يا ولد العم، أنا لم أتشرف بمعرفتك، حين دخلت نجعكم وجدت طفلك فقلت له : أريد والدك.

أشار عبد الستار إلى مضيفة القبيلة فى نهاية الساحة وقال باسماً: مرحباً بك يا شيخ العرب.. تفضَّل.

– قبل أن أدخل أريدك أن تتكرَّم وتحضر لى الحاج

عطية الكومى، أو تدلّنى على بيته.

تجهم عبد الستار حين جاء ذكر عطية الكومى.. لكنه تمالك نفسه وقال وهو يشير إلى المضيفة : تفضّل ونحن نبعث فى طلبه.

دخلا مبنى واسعاً نصفه غير مسقوف، تتوسطه أعمدة من الآجَر، تحمل سقيفة مستطيلة، تحتها تراصّت أرائك خشبية ذات لون أخضر، عليها مساند محشوة بالقطن ومكسوة بقماش يحمل اللونين الأزرق والأصفر..

جلسا إلى أريكتين متقابلتين، وقال عبد الستار لولده : الشاى.

انطلق الصغير فى اتجاه البيت، وقال الضيف: طلبت من ولدك يدلّنى على بيته فلم يجبنى..

تساءل عبد الستار : شيخ العرب من أى بلد ؟

– من الغُنيمية، أنا من قبيلة الخواطِر.

– أهلاً وسهلاً، واسم الكريم ؟

– حماد أبو عبد العال، وأنت ؟

– عبد الستار أبو حامد، من قبيلة الشماريخ، أنت

شرّفتنا.

- شرّف الله مقامك، يا تُرى بيت الحاج عطية بعيد عن هنا ؟

- لا، نعم، لا، على كل حال خذ ضيافتك وسنحضره لك.

قال عبد الستار ذلك واستأذن من ضيفه ودخل بيته، قال لزوجته التي كانت تغسل الأكواب الصغيرة وتضعها على الصينية: رجل غريب يسأل عن عطية الكومي..

ضربت الزوجة صدرها بيدها وشهقت: عطية الكومي؟

مرّت لحظة صمت قبل أن تتساءل وهي تحدّق في وجهه رافعةً رأسها : وماذا ستفعل معه ؟

تنهّد وهو يقول : لا أعرف.

بعد لحظة صمت أخرى قال: بعد أن يشرب الشاي يحلّها الحلال.

ثم خاطب ولده الصغير: إجرِ يا عمر، قل لجدتك عائشة أبي يريدك الآن.

انطلق الصغير وحمل هو صينية الشاي وخرج بها..

وضع الصينية بجواره على الأريكة ومضى يصب الشاى من إبريق صغير فقال الضيف: هل صحته جيدة؟

– من؟.. آه.. عطية الكومى؟.. نعم، نعم، جيدة.

– منذ عشر سنوات لم أره.. تعرفت إليه فى قرية «البصيليّة»، تزاحمنا على شراءَ تمر حوش نخل، فتدخل الناس بيننا فاشتريناه معاً. كانت بيعة طيبة، أنزلناها فى مركب شراعى إلى القاهرة، قضينا معاً شهراً فى النيل، ثم أسبوعاً فى القاهرة، كان من أحسن الناس الذين عرفتهم فى حياتى..

– فعلاً، فعلاً.

– كنت فى طريقى إلى مركز أسوان، تذكرته، قلت لابد أزوره وأرى ماذا فعل الزمان به، هل هو بخير ؟

– نعم، نعم، اشرب الشاى يا شيخ العرب، أهلاً وسهلاً.

– كم عنده من الأولاد والبنات ؟

– خمسة ..

– ما شاء الله، ما أسماؤهم ؟

– أحمد وإبراهيم وموسى وحمَّاد وفاطمة.

– آه.. حماد هذا على اسمى أنا... فيه الخير والله.. أنت شوَّقتنى لرؤيته الآن، هل أحواله المالية طيبة ؟

– نعم، طيبة، أنت شرَّفتنا.

دخل الصغير وقال : جدتى جاءت.

استأذن من ضيفه وخرج.. رأى عمته تقترب من باب بيته.. عكازتها فى يدها وعباءتها السوداء الخشنة منسدلة على كتفيها. ساعدها على اجتياز عتبة الباب الجرانيتية العالية وهو يرحب بها.. كانت تلهث لكبر سنها.. جاءت زوجته فصافحتها باحترام، وبعد أن جلست على سرير واطئ من الحِبال المجدولة قال لها :

– أرسلتُ فى طلبك لاستشيرك.. رجل غريب فى مضيفتنا يسأل عن عطية الكومى.

بدَت الدهشة على تجاعيد وجهها التى انتشرت مثل شبكة دقيقة الخيوط : عطية الكومى ؟

– نعم، قلت لن أتصرف إلا بعد استشارتك.

تجهَّم وجه العجوز وهى تسرح بصرها العليل فى

اتجاه النخلة فى صحن البيت قبل أن تتساءل: من أى بلد؟

- من قرية تابعة لمركز أدفو.

- قدمت له طعاماً ؟

- شاى.

- هذا رجل مسافر.. يحتاج إلى الطعام قبل الشاى.

- هذه سهلة.

- هل أخبرته عن الموضوع ؟

- لا ..

- لا تخبره الآن.

- متى أخبره ؟

- فى الصباح، بعد أن يتناول طعام الإفطار.

تساءل فى دهشة وقد ارتفع صوته: تريدينه يبيت عندى ؟

- وأين يبيت ما دام الرجل الذى يسأل عنه غير موجود فى البلد ؟

اختنَقت نبراته: أستضيف شخصاً صديقاً لقاتل ابن

عمى؟.. هل هذا كلام ؟

- ماذا تفعل ما دام دخل مضيفتك ؟

- يشرب الشاى، ولا بأس من طعام سريع، وأخبره بأننا نبحث عن الرجل الذى يسأل عنه، وأنه هاجر من البلد هو وأخوته وأولاده إلى جهة غير معلومة.

- عيب فى حقك.

- كونى استقبلته وقدمت له الشاى، فهذا يكفى.. سأخبره بالموضوع وأطلب منه أن يذهب.

ارتفع صوتها وهى ترفع عكازتها إلى أعلى : لا تكن حماراً مثل عمك صابر!..

جهز لضيفك عشاء طيباً، وابعث إلى أولاد عمك يتعشون معه ويؤنسونه حتى ينام، وفى الصباح أخبره عن الموضوع.

تدخلت الزوجة مخاطبة زوجها: أذبح لكم دجاجتين، وأجهز معهما أقراصاً من.....

قاطعتها العجوز: أى دجاجتين يا حمارة؟.. تجمعون أولاد عمكم حول الرجل على دجاجتين ؟

قال عبد الستار ساخراً: أذبح له يعنى ؟

– أبوك الله يرحمه، لو وجد نفسه فى هذا الموقف، لذبح أكبر خروف عنده.. لا أريدك أن تفعل مثله، لكن على الأقل اذبح جِدياً عمره ستة شهور أو سبعة.

ظهر الضيق فى صوته: أنا مديون وأذبح ذبائح.

– اجعل هذه الذبيحة فوق الجِراح، أو أرسل لى أى واحد يأخذ من عندى جدياً، لكن لا تفضحونا بين العرب على آخر الزمن.

تنَهَّد وقال لولده الصغير: إجرِ يا عمر.. قل لأعمامك عبد العزيز وعبد الرحمن وسالم ومحمود وكمال وعيسى وعبد الباسط وحامد، أبى يريدكم قبل صلاة العشاء.

ثم التفت إلى زوجته وقال : اغسلى القِدْر الكبير، لكن جهِّزى له لقمة سريعة يأكلها الآن!

وارتدى الثوب الأسود الفضفاض الذي كان يضعه على كتفه، ثم رسم على شفتيه ابتسامة وخرج.

القصص

١- عودة المهاجر........................ 7
٢- الصدأ 21
٣- الرحلة 35
٤- الترجل عن صهوة الريح 49
٥- شال من القطيفة الصفراء 61
٦- ارتحال الظل 71
٧- فاصل من معزوفة الوداد القرمزى 81
٨- الثوب المزركش 97
٩- الغبار 109
١٠- قبيل المغيب 119
١١- الباطن 129
١٢- حق الإعتراض 141
١٣- المدينة الكبيرة 151
١٤- سلال الجريد 161
١٥- الأشواك البرية 173
١٦- الثوب الفاخر 183
١٧- أعراف 193

صدر للمؤلف

- سلمى الأسوانية - رواية - هيئة الكتاب
- وهبّت العاصفة - رواية - المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب
- اللسان المرّ - رواية قصيرة - دار المعارف
- ابتسامة غير مفهومة - رواية قصيرة- دار المعارف
- مملكة المطارحات العائلية - مجموعة قصصية - هيئة الكتاب
- للقمر وجهان - مجموعة قصصية - مركز الفنون
- أخبار الدراويش - رواية - هيئة الكتاب
- مواقف درامية - قصص تاريخية - التضامن العربى - بيروت
- النمل الأبيض - رواية - دار الهلال

صدر مؤخرا عن (أصوات أدبية)

٢٠٢ – بالأصابع التى كالمشط .... شعر : محمد سليمان

٢٠٣ – كويلا ....قصص : يحيى مختار

٢٠٤ – الشرنقة .... قصص : سليمان فياض

٢٠٥ – مدينة اللذة .... رواية : عزت القمحاوى

٢٠٦ – كتاب الأرض والدم .. شعر : محمد عفيفى مطر

٢٠٧ – طراوة العين ....قصص : نبيل نعوم

٢٠٨ – نخب اكتمال القمر ....قصص : ابتهال سالم

٢٠٩ – طلل النار .... قصص : يوسف أبو رية

٢١٠ – الواحد الواحدة .... شعر : حلمى سالم

٢١١ – فوق الحياة قليلا .... رواية : سيد الوكيل

٢١٢– برجالاتك .... قصص : أمين ريان

٢١٣– وقائع استشهاد اسماعيل النوحى: رواية: سمير ندا

٢١٤ – فخاريات .... شعر : اسامة شهاب

٢١٥ – رجف الذاكرة .... قصص : رضا امام

٢١٦ – تفاصيل وتفاصيل أخرى...........شعر : ابراهيم داود

٢١٧ – هى وخادمتها .... قصص : هناء عطية

٢١٨ – كتاب العشق ....شعر : عبد الدايم الشاذلى
٢١٩ – حكايات جار النبى الحلو..... قصص : جار النبى الحلو
٢٢٠ – الحنين .... شعر : عبد العظيم ناجى
٢٢١– نسيم الصبا...................... قصص : زينب صادق
٢٢٢– بندق .... قصص : محمود حنفى
٢٢٣– الغالب والمغلوب................. رواية : مصطفى الأسمر
٢٢٤– مساحات للتعب .... شعر : سمير عبد الباقى
٢٢٥– مشتهيات .... رواية : سهام بدوى
٢٢٦– أشعار .... شعر : ابراهيم رضوان
٢٢٧– القابض على الجمر .... قصص: رفقى بدوى
٢٢٨– حلاوة الروح .... شعر : أمين حداد
٢٢٩– يونى سكس .... قصص : علاء البربرى
٢٣٠– الأرض جحيم الخائفين .... شعر : حسن عقل
٢٣١– حلوانى عزيز الحلو .... رواية : محسن يونس
٢٣٢– فراديس الحوارى .... شعر: ابراهيم خطاب
٢٣٣– مقاطع من جولة ميم الملة .... قصص: حافظ رجب
٢٣٤– هذا دمى وهذا قرنفلى .... شعر : وليد منير
٢٣٥– توتة مائلة على نهر .... قصص: محمد ابراهيم طه
٢٣٦– معلَّقةٌ بشص .... شعر : فريد أبو سعدة

٢٣٧- موسم الرياح .... رواية : سمير المنزلاوى
٢٣٨ - كيف طاوعك الرحيل؟........... شعر : مختار النادى
٢٣٩- تحولات إنسان عابر........ قصص : جمال زكى مقار
٢٤٠- خيانات ذهنية .... قصص : مى التلمسانى
٢٤١- ذهبت إلى شلال.................... قصص: بهاء طاهر
٢٤٢- المصرون على الفرح .... قصص: نورا أمين
٢٤٣- تل القلزم .... رواية : محـمـد الراوى
٢٤٤- لحظات غرق جزيرة الحوت .... محمد المخزنجى
٢٤٥- صور من ألبوم نيويورك.......... شعر : أحمد مرسى
٢٤٦ - بروفات............................ قصص : عفاف السيد
٢٤٧- ريحة البلاد التانية .... شعر : ابراهيم سلامة
٢٤٨- ثلاثية الوجع .... قصص : بهاء السيد
٢٤٩ - تعاسات شكلية............ قصص : محمد الشاذلى
٢٥٠ - كوميديا .... شعر : فارس خضر
٢٥١ - آخر حبه مزيكا .... شعر : صادق شرشر
٢٥٢- السيدة التى .... قصص : صبرى موسى
٢٥٣- شال من القطيفة الصفراء...... قصص : عبد الوهاب الأسوانى

رقم الإيداع : ٩٩/٣٤٥٦

شركة الأمل للطباعة والنشر

ت : ٣٩٠٤٠٩٦